بغداد ايام زمان

الكرادة الشرقية مشاهدات وذكريات

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2551) السنة التاسعة
الاثنين (30) تموز 2012

9

شيء عن الرصافي
في القدس سنة 1920

الكرادة الشرقية مشاهدات وذكريات

كاظم سعد الدين
كاتب ومترجم

الكرادة من الكرد وجمعها كرود، وهو وسيلة من وسائل الري التي لم تعد تستعمل الان، الكرد لغة – مصدر من الفعل "كرد"، الدابة اي ساقها، فهذه الوسيلة تحتاج الى دابة والى رجل يسوقها، والدابة عموماً هي بقرة او ثور، ويسمى الشخص الذي يسوق هذه الدابة ويستقي بها "الكراد" وجمعه الكرادة، اي الناس التي تستعمل الكرود. وسميت المناطق التي تستعمل الكرود باسم الكرادة في بغداد، مثل الكرادة الشرقية، الواقعة جنوبي بغداد، لان لفظة الشرق عند الناس تستعمل للشرق والجنوب، والغرب تستعمل للغرب والشمال، وكانت تسمى الكرادة السيد ادريس، وهي مقابل كرادة مريم على الضفة الاخرى من نهر دجلة حيث مقام السيدة مريم، قرب القصر الجمهوري، وكرادة الصليخ، شمال شرقي الاعظمية مقاب الكاظمية. ولاتوجد مناطق اخرى غير هذه المحلات الثلاث في العراق، ويطلق بعض الناس اسم "كرادة" على زراع الخضراوات في غير هذه المناطق ولاسيما في الجنوب.

المحلات والعشائر والبيوتات واهم المعالم في الكرادة:

الزوية:

تقع في زاوية شبه جزيرة الكرادة وفيها محلة الجادرية ولا تعرف نسبة اسمها بنحو دقيق وتقابلها من جهة النهر اليمنى جزرة ام الخنازير حيث كانت تكثر فيها الخنازير وسميت حديث جزيرة الاعراس وفيها بيوت سياحية ومنتزهات وقد زالت معالمها القديمة، حيث كان فيها "زور" من اشجار الغرب وغيره ومن الجهة الاخرى من النهر توجد المنطقة التي تسمى الدورة (دورة النهر) ومن اهم عشائرها الجبور وفيها الان مصافي نفط الدورة وتمر منها سكة حديد الجنوب وتقع جزيرة تشبه جزيرة ام الخنازير تقابل الدورة والمسبح اسمها جزيرة ابو رميل.

واهم المعالم الحضارية في الزوية الجسر المعلق الذي حل محل الجسر العائم الموقت، والكلية العسكرية التي انتقلت الى مباني الريفية وحلت محلها الريفية واعدادية التجارة، وكانت فيها ساحات تدريب طلبة الكلية العسكرية منطقة الليشان (اي التل) في ساحة الحرية الحالية، وقربها منطقة المعامل، وفيها ايضا المباني الادارية لجامعة بغداد وبعض كلياتها وفيها فندق بابل وجسر صدام، والجسر ذو الطابقين.

وقد سكنها شمر ومنهم بيت الخضيري، وبنو لام ومنهم بيت الحاج ناجي بن الحاج رضا، والجبور وزبيد ومنهم البو سلطان والبكريون والعكابات وآل سعيد والجنابيون، والسادة بيت الحسني وآل شديد، والشطاويون والسراجات من ربيعة.

البو شجاع:

لايعرف بالضبط سبب التسمية والى من تنسب، وتقع بين مرقد السيد ادريس الى مستشفى الدكتور عبد المجيد حسين وكانت البساتين والمزارع المحيطة بمرقد السيد ادريس موضع تجمع كثير من الناس في يوم الاحد الاول بعد العيدين وهم من ايام الكسلة اي العطلة لاصحاب المهن الحرة والكسبة، كانت محلة السيد ادريس تابعة للزوية قبل افتتاح الجسر المعلق، وفيها على نهر دجلة سبعة قصور التي سميت باسمها محلة سبع قصور ومن الجهة الاخرى الجنوبية حيث ساحة الحرية توجد منطقة المعامل التي ذكرت آنفا ومنها معمل باتا (الصناعات الجلدية) ومجلس آل الشعرباف، وشارع حافظ القاضي مقابل مستشفى الدكتور عبد المجيد حيث تجمع عيادات الاطباء واول صيدلية في الكرادة هي صيدلية الانصاري القريبة من المستشفى.

ومن العشائر والبيوتات التي سكنت هذه المحلة، بيت البغدادي وآل زوين، وشمر (ومنهم آل مباركة، وزبيد (ومنهم الشطاويون، والجنابيون وآل سباهي، والعبيد (البو حمد، والبو سهل) وخفاجة، آل المهداوي، والبو خضير، وكريش.

البو جمعة:

واصل تسميتها يعود الى آل جمعة حيث سكنها حفيد جمعة المدعو مذيهل بن كركوش بن مياح من وائل، ربيعة، ومنهم عباس حسن جمعة ومحمود حسن جمعة والدكتور عبد المجيد حسين (صاحب المستشفى).

وتمتد هذه المحلة من مستشفى عبد المجيد الى شارع هويدي، في المحلة شارعان يسكنها العباسيون من آل باش اعيان، ويلي ذلك البو جمعة في ثلاثة شوارع ومنها شارع البوليسخانة او شارع البريد وفي نهايته جامع البو جمعة ومدرسة الكرادة الشرقية والابتدائية ويجاوره شارع الكنيسة ويقابله شارع حسينية البو جمعة، ثم شارع الهندي ثم شارع بيت ابو دولمة وشارع هويدي (حيث حسينية عبد الرسول علي) واذا سرنا من شارع البريد نحو الكرادة خارج نصل الى الناظمية وفيها منطقة معامل واسالة الماء ومحلة من بيوت للارمن والى يسارها "ارض الوقف" حتى المسبح تزرع بالخس والخضراوات ثم وزعت الى قطع سكنية وسميت عرصات الهندية.

وبعد شوارع هويدي شارع العطار ثم شارع النقيب وشارع بيت اسود (وهم من الخزاعل) ثم شارع ابو اقلام باسم عبد الغني ابو قلام الذي استورد الاقلام للكتابة وفيه بيت الملائكة، ويقابله مستشفى الامام والثانوية الشرقية للبنين والثانوية الشرقية للبنات وثانوية المشرق ويجاوره دار درويش الحيدري ثم شارع خربنده (وهذا اسم امرأة) ويليه شارع بيت اصفر وبعد محلة رخيته (وهذا اسم امرأة ايضا) وفيها جامع التميمي، وكانت توجد جزيرة الكورية التي تظهر عند الصيهود (نقصان ماء النهر) وتمتد من ابو قلام الى ما بعد فندق شيراتون، وكانت متنزها صيفيا تنصب فيها جراديغ (اكواخ)، ثم كرد الباشا ولا يعرف اسم هذا الباشا وهذا قرب مفرق كهرمانة وبعد المفرق العلوية حيث الجامع ونصب الجندي المجهول (القديم) ويقابله نادي العلوية حيث كانت دور سكن الموظفين البريطانيين وناديهم وساحات السلة والتنس الخاصة بهم، ثم بستان كبة (وهم آل كبة من ربيعة ومنازلهم الاولى حيث منازل ربيعة وهم ليسوا من ديالى).

البتاوين:

وفي هذه المحلة سينما النصر وسينما بابل وفندق بغداد، وبستان الخس (في ساحة النصر) وبستان بيت المهيدي وفيها سينما السندباد، وكازينو بلقيس ملتقى الادباء في الخمسينات، وبعدها الاورفليه حتى ساحة التحرير. وكانت بستان الخس وبستان بيت المهيدي والاورفليه تسمى البتاوين. اسماء الشوارع التي مر ذكرها هي اسماء البساتين التي كانت تسقى بالكرود وفي اواسط الثلاثينات كانت نهاية استخدامها وقسمت تلك البساتين الى اراضي سكنيه، ولم يكن يسكن تلك البساتين سوى بعض من ذكر في الزوية والبو جمعة وبيت اسود وبيت كبة وبيت المهيدي.

ومن العشائر التي سكنت هذه المحلات الاخيرة، ربيعة في البو جمعة وبستان كبة (آل كبة) وخفاجة والعباسيون (آل باش اعيان) والحجاج وهم من ربيعة ايضا، والبو سلطان، والخزاعل (بيت اسود)، وعزة (بيت شبيب في البتاوين)، وبيت الحداد (قرب مستشفى عبد المجيد) وهم من البو ناصر، من تكريت، ثم بلد ومنهم عبد الرسول الحداد، وعبد الصاحب علوان الحداد.

اسماء غير عربية، كمب سارة (سارة خاتون الارمنية، سارة الزنكنية) الاورفلي (من اورفا، الرها) ارخيته، خريندة، الكيلاني، كتخدا، بيت الدركزلي (في الزوية) الخاتون (ليلى وشمصة).

الاسواق وشركة تموين بغداد:

لم يكن في الكرادة اسواق بالمعنى المتعارف عليه في بغداد والكاظمية مثلا بل كان هناك دكاكين متناثرة، لا يتجاوز اكبر تجمع فيها اكثر من خمسة دكاكين مستأجرة من اصحاب البيوت، وكان اهمها الدكاكين الموجودة قرب البوليس خانة (مركز الشرطة) حيث مديرية الناحية والمحكمة والشرطة ومدرسة الكرادة الشرقية الابتدائية وجامع البو جمعة، كان دكانان مستأجران من بيت عائد لاحد اليهود على ضفة النهر مباشرة، احدهما استأجره حسين العلي (والد الدكتور عبد المجيد حسين)، وآخر استأجره حسين المشكور، وهما يبيعان المواد العطارية والسكر والشاي والتمر والقيمر، وكانت تأتي بعض بائعات الخبز لبيع خبزهن هناك وكان ثالث اخرجه سالم الشيخ احمد (سالم الاطرش) من داره خلف جامع البو جمعة وكان يبيع فيه الرقي والبطيخ والخضراوات. وكان الرقي والبطيخ تأتيه بالكلك او الشختور من سامراء، ودكان رابع في الفرع المجاور للبوليس خانة استأجره الحاج حسن العلوان من احدى الدور في دربونة الكنيسة وكان يبيع فيه المواد العطارية والبهارات والقرطاسية، ثم انتقل بعد ذلك الى الطرف الاخر من هذه الدربونة حيث بنى عدة دكاكين وسردابا واصبحت المنطقة منطقة تجمع تجاري في اواسط الاربعينات وبنى الحاج علي الشعبان سوقا عصرية مقابل سوق الحاج حسن العلوان، وهناك تجمع تجاري اخر في منطقة رخيته من اسواق ودكاكين احدث. وتطورت المنطقة عندما بنيت عمارة مقابل البريد تحتل ثلاثة اركان من شارع المهدي وشارع حذيفة اليماني وشارع المحكمة (في ما بعد انتقالها الى احد الدور فيه). واشغلت السرداب في هذه العمارة "شركة تموين بغداد" وكان السيد شاكر الاعرجي احد مديريها او مؤسسيها. وقد استخدمت الشركة عربات (قوج) خاصة ذات حصانين او حصان واحد لتامين وصول طلبات بعض بيوت الاغنياء في الكرادة وما جاورها غير انها افلست وما تزال هذه العمارة مركزا تجاريا وسكنيا في المنطقة، وافتتح في اواسط الاربعينات مخبز صمون في الجهة المقابلة لها وما يزال موجودا.

وبما ان الكرادة الشرقية كانت منطقة زراعية وفيها نخيل من غيره من الاشجار المثمرة التي كانت قد تدهورت زراعتها وبقيت محافظة على كثافتها في منطقة الجادرية، فقد كانت صناعة الدبس رائجة في المنطقة وكان في كل دربونة او دربونتين بيت لغلي الدبس الذي يكون مؤونة لاهلها، ومما يفيض عن حاجتهم، كان بعض البدو يأتون على جمالهم لمقايضته بالدهن الحر (الحيواني) والحنطة وكان الذين يقايضونهم يخلطون لهم الدهن بالدبس ويقدمونه لهم من ارغفة خبز حار، اما السعف اليابس والكرب فكان يشتريه جماعة من عشيرة (الضوايح) ونقله الى خارج الكرادة، اما السعف الاخضر الكبار والصغار فكان يشتريه اهل محلة القناهرة لصناعة الاسرة والاقفاص والحصران والعلاليق وغيرها.

وكانت في البو شجاع ماكنة طحن حبوب واخرى في الناظمية وكان سليم القطيم ينقل اكياس الحنطة الى ماكنة الطحين على حمارته التي سماها (نظيرة)، مع العلم ان سلوم كان ضعيف النظر، قوي البصيرة يعرف جميع عواصم الدنيا ولم يخفق يوما في معرفة اي عاصمة حين يسأله طلبة المدارس، كان شخصية مرحة يحفظ كثيرا من الطرف اللطيفة المؤدبة، وبعد ان كبر وكبرت نظيرة، وكان قد تزوج وانجب اولادا اذكياء اكملوا الدراسة الجامعية، صار يبيع الخضراوات في رأس الدربونة "المجاورة لاورزدي باك" وكانت النساء تفضل الشراء منه لضعف بصره، ومعاملته المرحة واسعاره الرخيصة، ولاسيما حين اصبحت علوة الخضراوات خلف معمل باتا وصاحبها الحاج شاكر محمود العلي من اهل الكرادة ومن ابناء محلته.

المدارس:

لم يكن انذاك من المدارس سوى مدرسة الكرادة الشرقية الابتدائية للبنين تأسست سنة ١٩٢٣ واخرى للبنات، ومدرسة الزوية للبنين، والثانوية الشرقية (متوسطة واعدادية) للبنين، والثانوية الشرقية للبنات، في شارع مستشفى الامام.

لم يكن ثمة نشاط ثقافي يذكر ولا نشاط مسرحي ولا نشاط فنون تشكيلية او موسيقية، كما اعرف عن هذه النشاطات جميعا في مدارس الكاظمية مثلا.

في سنة ١٩٤٤ جاء الى مدرسة الكرادة الشرية معلم اسمه صبحي طلحة اوجد نشاطا فنيا في الرسم، بتكبير الصور وغير ذلك ولكنه لم يقم اي معرض للنتاجات التلاميذ إلا على جدران المدرسة نفسها، في داخلها طبعا، وفي النشيد كان سعيد شابو الموسيقى الشاب يزور المدرسة ويعلم التلاميذ الاناشيد الوطنية، وكان في الثانوية الشرقية منذ ١٩٤٤ استاذ الرسم الرسام المعروف شوكت الخفاف (الرسام)، وكان له نشاط ظاهر

لايكل في تعليم التلاميذ اصول الرسم الواقعي، ولكنه لم يقم اي معرض، ولا اعرف احداً تميز بالرسم بعد ذلك من طلبة الثانوية الشرقية.

ولم يكن ثمة نشاط مسرحي او خطابي في الثانوية الشرقية، اما النشاط الثقافي، فقد كان للاستاذ صبحي البصام (ابن اخت الوزير صادق البصام) نشاط واضح . فقد سعى الى تأليف لجان ثقافية منتخبة من طلبة الصفوف جميعها واجتماعها في يوم من الايام عصرا والقاء كلمات من ممثلي اللجان الفرعية او قصائد، ولم يكن ثمة شاعر فيها سوى عزت الغرباوي، وبرز في كتابة المقالة والقصة على نطاق المدرسة طلال ابو اقلام، ولم يشارك نزار الملائكة او عصام الملائكة بنشاط تلك اللجان مع العلم ان نزار كان يعرف، كما ذكر لنا اخوه عصام، ست لغات.

واصدرت اللجنة نشرة جدارية لا اتذكر اسمها صدر منها عدد واحد او عددان.

اما المدرسون في الثانوية الشرقية في الاربعينات فابرزهم رفائيل بابو اسحق (مؤلف تاريخ نصارى العراق) في اللغة العربية والتاريخ القديم، وصبحي البصام (مؤلف الاستدراك على قل ولا تقل) في اللغة العربية والتاريخ الاسلامي، والشيخ مهدي عباس في اللغة العربية، ورشيد كمال الدين في الجغرافية، وعبد الامير الحار في الرياضيات، ووديع سرسم في العلوم العامة والكيمياء، وعباس علي القره غولي (مؤلف كتاب النحو الاوضح (في العربية) وسليم هيلانتو ويوسف هيلانتو في اللغة الانكليزية، وفيصل نجم الدين الاطرقجي (صاحب الاطلس المدرسي والخرائط المجسمة) في الجغرافية، ومحمد احمد المهنا في الجغرافية واحوال العراق، وشكري حبيب (مصري) في اللغة الانكليزية والترجمة، وجون ريكان (ايرلندي) في الانكليزية، وعبد الرزاق محيي الدين (محاضرا في العربية) وسعيد بهجت مدير الثانوية.

وكان ابرز الثلاميذ فيها نزار الملائكة واخوه عصام الملائكة وقيس كبة الطبيب، وحميد مهدي السلطان الطبيب، وعبد الحميد العباسي (الطبيب) واسعد محمد رضا الشبيبي، وسهام المدفعي، ومحمد باقر علوان الدكتور) وعبد الكريم عباس (المهندس) وداود سلوم (الدكتور) ومحمد جواد سعد الدين (الدكتور) وسعدون عبد المنعم الخضيري، وعلي عبد الرسول علي، وموفق محمد حسن كبة، وعبد الله سباهي (الطبيب).

كانت مدرسة الكرادة الشرقية الابتدائية في بيت مستأجر في منطقة البوليسخانة مقابل جامع البو جمعة على نهر دجلة – كان مديرها حسن محمود العلي (خريج جامعة آل البيت) ومن معلميها شاكر حبيب في الرياضيات والرياضة وسالم حسن العيسى في الانكليزية، والسيد حسن الحسني في العربية والتاريخ (واصبح مديرا في ما بعد) والسيد محمود الحسني في الرياضيات، وصبحي طلحة في الرسم، ويوسف كاكوز في الانكليزية، ورشيد الاسود في العربية وجعفر الجواهري (اخو الشاعر محمد مهدي الجواهري) في العربية.

وقد كان فيها قبل ذلك من المعلمين عباس حسن جمعة، وصادق الاعرجي، ومحمد حسين الشبيبي (اخو محمد رضا الشبيبي)، والسيد جعفر البغدادي.

ومن ابرز التلاميذ فيها من زملائنا عبد الحميد علوان العباسي (الدكتور الطبيب) وباسل محيي الدين يوسف (الدكتور الطبيب)، راجح محيي الدين يوسف (المهندس)، عبد الحافظ خزعل العباسي (الضابط العسكري) وسعيد عبد الامير العباسي (الضابط العسكري).

المكتبات:

لم يكن في الكرادة الشرقية مكتبة عامة الا في الستينات وهي مكتبة الكندي في منطقة الزوية، ومكتبة اخرى في منطقة الخربندة هي مكتبة عبد الله بن مكتوم.

اما قبل ذلك فقد كان الناس يتبادلون الكتب، وقد فتح السيد فاضل الخفاجي في نهاية الاربعينات مكتبة لبيع الصحف والمجلات العراقية والعربية اسماها مكتبة الاهالي الشرقية مقابل البريد في محلة البو جمعة وكان لها اثر كبير في تثقيف الشباب، بالشراء او بالاستعارة او الاشتراك. وقد كان الناس يذهبون الى سوق السراي لشراء ما يحتاجون اليه من المكتبات المتعددة فيه.

التصوير الشمسي (الفوتوغرافي) وستوديو بغداد للسينما:

عند افتتاح المدارس كان التلاميذ الذين يسجلون في الصف الاول الابتدائي يحتاجون الى صور فوتوغرافية لوضعها في سجلاتهم. فكانوا يأخذون صورهم لدى المصور الجوال الذي يتخذ موقعه قرب البوليسخانة (مركز الشرطة) حيث تتطلب معاملات الناس صورا فوتوغرافية ولا سيما في المحكمة والدعاوى في مركز الشرطة، واذا لم يكن المصور موجودا فانهم كانوا يذهبون الى منطقة سوق السراي وشارع المتنبي حيث المصور الشمسي علي ترك وشارع الرشيد، ومنطقة حافظ القاضي حيث كانت استوديوهات المصورين السيد جعفر الحسني وارشاك وريكس وفينوس والمصور الاهلي (عبد الرحمن).

وفي نهاية الاربعينات وربما في ١٩٤٨ افتتح ستوديو بغداد للسينما في احدى البناكل عند باب معسكر الرشيد وصور فيه فلم عليا وعصام.

المعامل:

اقصد المعامل في شبه جزيرة الكرادة، واستثني من ذلك المعامل الاخرى من المسبح ومعسكر الرشيد وطريق المعسكر وبغداد الجديدة ومعامل الطابوق وغيرها.

تمتد منطقة المعامل بين الناظمية (في منطقة اسالة الماء) والليشان (ساحة الحرية) حيث توجد معامل متعددة الاختصاصات كالحلويات (صادق صبري المرياتي) والبسكت والصابون (كافل حسين) وملح الطعام والكبريت (الشخاط)، والخياطة والنسيج (شهداء الجيش) وصناعة الخمور (معامل التقطير) مسيح والبغدادية، وعلوة المخضرات ومعمل احذية باتا، وقد كان في اول امره في مفرق الكرادة داخل في محل بناية (السوق الحرة ، الان اريدو) المجاورة لتمثال كهرمانة، وكان صاحبه رجلا جيكوسلوفاكيا، وكان ابنه فاسيلي، ويسميه (العمال في معمله وسيلي) كان شابا طويلا وكانوا يسكنون في منطقة الكرادة خارج حيث نقلوا معملهم الى مكانه الحالي ثم امم وبدل اسمه الى معمل الصناعات الجلدية.

ولما كان المعمل في مفرق الكرادة اشتغل فيه كثير من زملائنا بعد تخرجهم في الابتدائية وداوموا في المدارس المسائية في الباب الشرقي (في بيت الامة المسائية) واشتغل بعضهم في معمل الشخاط.

الطرق ووسائط النقل:

لم يكن يربط بغداد بالكرادة الشرقية سوى طريق واحد هو درب الشط وكان ضيقا جدا في بعض الاماكن بحيث لا يستوعب مرور شخصين او اكثر من دابة لتاكل جرف الشط، فبنيت المسنايات من الطابوق والنورة والرماد اذ لم يكن السمنت معروفا، وكانت السدة تقوى في بعض الاماكن باوتاد "القرع" وحطب الطرفة والتراب والاحجار والجينكو.

وهناك طريق آخر اسمه درب السلطان، يمتد من منطقة سعيدة ويمر بين ارض الوقف وبساتين الكرادة حتى يصل منطقة البو جمعة في الخارج (على البرة) ويمر بالناظمية ويسير نحو منطقة الليشان و(ساحة الحرية) وما يزال هذا الطريق هو القسم الوحيد من درب السلطان، ثم يواصل الى منطقة الزوية ولم يكن هذا الطريق مستقيما بل متعرجا، وبلط في ما بعد وسماه الناس، جادة ام الجير وكانت تسير عليه السيارات (باصات) خشبية، وفي ١٩٤٢ شق طريق الكرادة خارج من مفرق المسبح حتى ساحة الحرية والى الجادرية وسمي شارع العلمين باسم معركة العلمين في شمال افريقية وفتح طريق من الباب الشرقي الى منطقة كرد الباشا ومفرق الكرادة، حيث تمثال كهرمانة وسمي (درب الوسطاني) وبعد ذلك سمي شارع السعدون باسم رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون بعد انتحاره وكان بيته على درب الشط الذي سمي شارع ابي نواس. اما شارع الكرادة داخل فقد وسع وسمي شارع المهدي وزرع على جانبي شارع السعدون وشارع المهدي اشجار الكلبتوس وكانت تسقى من ساقية جانبية ويستعمل ماء الساقية لرش الشارع بصفائح وكان يقوم بذلك عمال البلدية.

كان الناس قديما يستعملون الحيوانات للنقل، فينقلون محاصيلهم الى بغداد متخذين طريق الشط حتى يصلوا باب بغداد المسمى باب كلواذا وهو اليوم يسمى الباب الشرقي وقد رأينا بقاياها في مكان عمارة المطعم التركي مقابل ساحة التحرير بين جسر الجمهورية والتقاء شارع الرشيد بشارع ابي نواس، ثم حول الى متحف الازياء وكان يضم ملابس الملك فيصل الاول والملك غازي وبعض ادواتهم واسلحتهم موضوعة في خزائن زجاجية كشأن المعروضات وكان هذا المتحف ضيقا جدا ينزل اليه ببضع درجات من جوار موقف سيارات مصلحة نقل الركاب رقم (١٢) الى الكرادة داخل، ثم هدم نهائيا.

كانوا اذا وصلوا الى (باب بغداد)، كما كانوا يسمونها، عصرا ليذهبوا الى علوة المخضرات في العوينة، يسلكون الطريق الضيق المؤدي الى تلك المناطق وما يزال قسم من ذلك الدرب في محلة السنك خلف مدرسة الملك غازي (ثانوية النضال) ويسمون تلك المنطقة السبيل خانة حيث كانت حبوب للماء وطاسات يشرب منها المارة في سبيل الله ويمضي الطريق اليوم الى حيث جسر السنك وقد هدمت الدور حي شق شارع (الملكة عالية) شارع الجمهورية (الخلفاء) ويمر في المنطقة القريبة من دوائر امانة العاصمة اليوم ويبيعون حاصلاتهم عند الفجر ويعودون بعد ذلك عند افتتاح باب بغداد يوم كانت مسورة، ولما هدم السور صاروا يذهبون في اي وقت ويخرجون في اي وقت.

وفي العشرينات كانت الماطورات النهرية (الزوارق البخارية) تستعمل لنقل الركاب بين بغداد والزوية ولها مواقف واجور معينة ومراقبون يراقبون عدد الركاب واجور الراكبين.

وكانت تستعمل السفن الشراعية الكبيرة والمهيلات والزوارق الشراعية الصغيرة والبلام والقفف والشخاتير والدوب والاكلاك للنقل النهري، وكانت تمر زوارق بيت الخضيري وعلامتها خضراء، وزوارق بيت لينج وكانت تحمل البضائع التجارية من البصرة الى بغداد ولها مداخن تنفثها في الجو وتطلق صافراتها ولعل ذلك كان تنبيها لعمال المرفأ بوصولها، كان المرفأ في الباب الشرقي عند مكان جسر الجمهورية اليوم.

اما السيارات، اي سيارات الاجرة وكانت تسمى طرمبيلات من كلمة طرمبيل وهي مقلوب كلمة فرنسية تمبريل وهي نوع من العربات، وليست من كلمة اوتوموبيل كما يظن بعض الناس فقد كان بدنها مصنوعا من الخشب وكانت اجرتها بين الكرادة وبغداد اربعة فلوس (عانة) وكان موقفها النهائي في (البوليس خانة) اي مركز الشرطة على نهر دجلة حيث كانت في مبنى قرب دار الاديب ناجي جواد الساعاتي اليوم ويتكون من طابقين، الطابق الاسفل للشرطة واصطبل خيلهم وللاسطبل باب خلفي من الدربونة الجانبية وما تزال هذه الدربونة موجودة. وفي الطابق الاعلى مديرية الناحية والمحكمة، وكان بعض الناس يفضلون السير مشيا على درب الشط ولاسيما الكبار منهم لانهم لا يحتملون رائحة البنزين التي تجعلهم يتقيأون.

وكانت هذه الطريق تسير فيها عربات البرشقة (بريشكا بالروسية) وتجرها البغال وكانت اطارات عجلاتها من حديد يسمع له صرير. من بعيد لاحتكاكه بالحصى الذي تفرش به الطريق قبل تبليطها وتستعمل لنقل الاحمال، وتسير فيه ايضا عربات القوج (من كلمة كوج الانكليزية) ويجرها حصانان وتستعمل لنقل الركاب وكانت تسير في شارع الرشيد ولكن حدد استعمالها في منطقة البتاويين وطريق الكرادة – ولم نر عربات اللاندون (من مدينة لاندو الالمانية).

وفي سنة ١٩٤٤ سيرت امانة العاصمة سيارات خشبية البدن (حافلات) لونها ابيض، اجرة النقل فيها (١٠) فلوس وكانت تصل الى البو جمعة قرب البريد وتدور ثم تعود الى بغداد. وابدلت بعد ذلك بسيارات (حافلات) مستوردة من بريطانيا، وظلت تسميتها (الامانة) حتى سميت المصلحة اي مصلحة نقل الركاب، وما يزال بعض الناس يسمونها الامانة، وبعد ان بلط شارع السدة من البو جمعة الى البو شجاع عند شارع لاجسر المؤدي الى ساحة الحرية وصل الخط الى هناك ثم مدد الى الزوية بعد ذلك قريبا من بيت محمد رضا الشبيبي.

اما سيارات الكرادة خارج فكانت تسير في (جادة ام الجير) وبعدها في شارع العلمين (شارع الهادي) وتصل الى شارع السدة (كطح الحجاج) شارع اورزدي القديم بين دائرة البريد ومدرسة الزيبرة للبنات وحيث تقاطع اضواء المرور وتأتي ايضا الى البوليس خانة واسم هذا الشارع شارع حذيفة اليماني ولكنها صارت تواصل سيرها الى الزوية.

وقد شاهدت حين كنت صغيرا بقايا سكة الحديد من منطقة المسبح، على بعد ٢٠٠ متر من المسبح نفسه، وعربة حديد صدئة، بقايا السكة الاتية من الكوت مارة بمعسكر الرشيد وتنتهي عند الجسر في الزوية.

الكلية العسكرية ودار المعلمين الريفية:

عندما احتل البريطانيون بغداد، جعلوا من الكرادة معسكرا لقواتهم، فيها وضعوا معسكر الهنيدي (الرشيد في مابعد) ومدوا سكة حديد الكوت بغداد من سعيدة بمحاذاة درب السلطان حتى الناظمية، (حيث مدرسة الزينبية) الخالصة اليوم، الى منطقة الليشان (ساحة الحرية) ثم نحو نهر دجلة عند موضع الجسر المعلق حيث اقاموا فابريقا او فافريقا اي معملا لتصليح القطار والزوارق البخارية وشيدوا على جهة النهر مستشفى بين الفابريقا وشارع الجسر العائم، حيث المفرق المؤدي الى ساحة الحرية، في المنطقة المجاورة للسيد ادريس في اثناء الحرب العالمية الاولى وما بعدها واطلق اناس عليها اسم (الخستة خانة) اي دار المرضى وانتقلت الى هذا المبنى سنة ١٩٢٧) الكلية العسكرية وبقيت فيها حتى سنة ١٩٤٧ حين انتقلت الى الرستمية في بناية دار المعلمين الريفية، التي انتقلت الى مبنى الكلية العسكرية، واحتلت القسم الواقع الى جهة السيد ادريس اعدادية التجارية، وبقيتا فيه حتى غرقت الكرادة سنة ١٩٥٠ وتهدمت مبانيها.

واتخذت الكلية العسكرية ساحات تدريباتها في منطقة الليشان (الايشان) اي التل القديم (في منطقة ساحة الحرية – حيث كانت تقيم مهرجاناتها السنوية، وقد اقيمت منصة للملوك فيصل الاول وغازي وفيصل الثاني والوصي عبد الاله على جانب من الايشان المطل على ساحة التدريب، وكانت تنصب عليه سرادقات لهم ولكبار ضباط الجيش وكبار المدعوين وكان لهذه الفعاليات تأثير في شباب المدارس من حيث الفعاليات الرياضية.

سينما البلاش :

مجتمع الكرادة مجتمع متوازن نفسيا ويعود سبب ذلك الى التزام الناس بالدين ويتجلى ذلك في الاخلاق الحميدة ومحافظتهم على الصلاة والصوم صغارا وكبارا، رجالا ونساء، وحرصهم على تعلم قراءة القرآن، الصبيان في الكتاتيب والفتيات لدى العليات (جمع ملة).

وقد كان الاقرباء من عشيرة واحدة يسكنون في محلة واحدة ويترتب على جميع الرجال حمايتها من تطفلات الغرباء، فلم يسمع احد ان شخصا تحرش بامرأة او فتاة في محلته، ولا في محلة اخرى اذ لم يكن يسمح للغرباء المرور في درابين غيرهم وكانوا يسألونهم عن حاجتهم قبل دخول الدربونة، او انهم كانوا يدخلونها بصحبة احد من ابناء المحلة، وبما ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، لم يكن احد يسكر ولا يزني، بل اكثر من ذلك انهم لم يكونوا يربون الطيور ولا الكلاب، ففي الكرادة كلها لم نسمع احدا كان يربي الطيور سوى بيت واحد، كان يطلق عليهم بين ابو الطيور، مع العلم ان الرجل واهله واولاده كانوا اناسا متدينين، اخيارا، لا يطيرون طيورهم فوق السطوح.

ولم يكن الناس يستخدمون الحاكي، واذا وجد في احد البيوت راديو فانه كان لسماع الاخبار من محطة بغداد وغيرها ولسماع القرآن الكريم. ولم يكونوا يستقبلون فرق الكاولية في افراحهم، واذا كان لابد من الرقص فرقصة الساس هي المفضلة وكذلك الجوبي (الدبكة)، ولم يكن احد يسكر في الاحتفالات الخاصة بالزواج او الختان على الرغم من وجود معمل تقطير مسيح في المنطقة.

ولم يكونوا يذهبون الى السينما في بغداد الا نادرا وخصوصا اذا كان الفلم بدويا مثل فلم عنتر وعبلة وامثاله.

وفي اثناء الحرب العالمية الثانية عمدت السفارة البريطانية على عرض افلام حربية للدعاية لقواتها وقوات الحلفاء في حربهم ضد المحور، كانت الافلام تعرض عند غروب الشمس في يوم من ايام الاسبوع، وكان يوم الاثنين، في منطقة الخريندة في ساحة ارض غير مبنية على الشارع العام قريبة من حانوت رضا علوان، ومقابل مصرف الرافدين اليوم تقريبا. وكان اكثر مشاهدي هذه الافلام من الاطفال والفتيان وكان اكثر ما يهمهم رؤيته هي المناظر الطبيعية الملونة والزهور، اذ لم يكن هوى الناس مع البريطانيين قط، بل كانوا يتمنون لهم الاندحار، ولم ينس الناس تعليقات يونس بحري من اذاعة برلين. كان الكبار يذهبون الى مجالس الوعظ، وكانوا يجتمعون عند صلاة المغرب في بعض الحارات، ويجلسون على (مدات) او بسط تفرش عصرا وترش الارض المحيطة بها، يؤدون صلاة المغرب هناك، ويتحاورون في امور الدين والفقه، وامور العمل التي تخصهم، وكان الصغار يجلسون الى جانب المجلس للاستماع ولتادية بعض الخدمات للجالسين، كتقديم الماء لهم وغير ذلك.

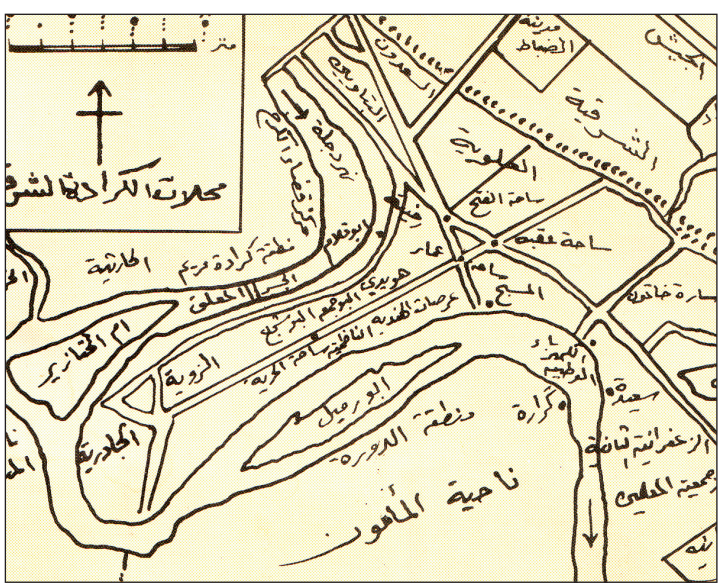

بغداد ايام زمان

القفة

فؤاد طه محمد
باحث تراثي

وارحمة لطيفها السارح على امواه دجلة والفرات، تترنح اعطافها ذات اليمين وذات الشمال، وهي تترجرج حالمة مع النسمات، منسابة على صدر الموج، القفة!.. ذهب بها الزمان وانطوت صفحتها من على صفحة الماء، ولكنها بقيت طيفا ذهبياً في الوجدان، كأنها الخيال العابر، حين يمر على الخاطر.

القفة، من وسائط النقل النهرية، يرتقي عهد العراقيين بها الى ايام اجدادهم الاشوريين والكلدانيين، كما تنطق بذلك الشواهد الاثارية في الاحافير التي كشف عنها التراب، وصاحبها يقال له (قفاف(و(القفجي) باللهجة البغدادية، تجمع على (قفف) و(قفاف).

مستديرة الشكل، ينسج هيكلها من نبات الحلفاء والبردي واعواد اغصان الرمان، وتسمى تلك الاعواد (روطا)، وبعد ان تلتحم صفوف نسجها يطلى ظاهرها وباطنها بالقار السيال المعروف بـ (أللسالي)، ويترك اياما ليجف، حيث تطلى بعد ذلك بالقار الكثيف الثخين المعروف لدى البغداديين بـ (الدوسة). واضرعها المنحنية التي تربط الدائر العلوي بالقاعدة تسمى (الشطوب) وما بينهما يدعى (الرقام)، اما حافتها الدائرية فتسمى (شفة) وذلك قبل ان تطلي بمادة القير، فاذا طليت تسمى (البلبلة) بينما يطلق على باطنها مما يلي الحاشية اسم (العكلات) وهي ثماني خشبات مثبتة فيها، طول كل واحدة فيها حوالي الثلاثين سنتيما، وتشد بها حبال قصار كالعرى للربط والتثبيت تسمى (خيات) مفردها (الخية) من (الاخية) اي محبس الدابة. أما ارضيتها او ساحتها فيطلق عليها البغادده (الصرة) وهي تتكون من الفصلات: المواد تضم الى بعضها مسدودة على اقطار صرة القفة، متصلة بمحيط قاعدتها الدائري، يقاطعها عرضيا المواد مثلها، غير انها امتن واعرض منها، وبالتداخل يلتئم بعضها مع البعض الآخر فتتماسك وكأنها القفة الواحدة وقد حيكت من نسيج ملتحم.

انواع القفف:

١) الحصان: وهي كبرى القفاف حجما، مقدار قطر ساحتها بين تسعة اقدام ونصف القدم وستة عشر قدما، وتستخدم لنقل الحيوانات والمتاع الثقيل وشتى الاغراض الاخرى.

٢) البغل: وهي اوسط من سابقتها، تستخدم لنقل الرقي والبطيخ والخضروات والاغنام وسعف النخيل وكربها والقصب وبقية انواع الحطب والتمور.

٣) الوسطانية: ويبلغ مقدار قطر ساحتها من ستة اقدام الى تسعة اقدام، وتستخدم للمسافات المتقاربة والانتقال بين الشرائع على ضفتي النهر وشطان البساتين.

٤) الصغيرة: ويصل مقدار قطر ساحتها الى ستة اقدام وقد لا يصل الى ذلك (المصدر: لغة العرب) السنة الثانية – ج٤ للمرحوم كاظم الدجيلي وربما سميت (الكشر).

وتسير بكافة احجامها بواسطة (الغرافة) ولكل قفة عدد منها.

وكان لها تاريخ حافل بالشموخ والازدهاء، كما كانت لها مكانة بين معاصراتها من وسائط النقل النهرية الاخرى في انهار العراق كالطوف والفلكة والقارب والشختور والقابق والركوة والكلك، ولكنها تتفوق عليها في كونها لا تتعرض للغرق إلا اذا جاوزت حمولتها الحد المقرر.

خواطر عنها:

يعاني الكاتب في الموروث البغدادي البغدادي من قلة المصادر المؤلفة عن مناحي الحياة فيها، فهناك روايا لم تتطرق اليها اقلام الباحثين التراثيين الى الان. لذا كثيرا ما يتعسر على الباحث طريق الكتابة والتأليف، والرغم من قرب العهد بوسائط النقل النهرية التي كانت تمرح على صدر دجلة والفرات وهي تتهادى على وجه الماء بدعه وابهة وصبور، فاننا لا نكاد نجد إلا الصحف اليسيرة والسطور الشاردة مما كتب عنها، مما يدفع الكاتب بالرجوع الى المخضرمين لالتقاط المعلومات من افواههم وتوثيقها عنهم، قبل ان يبتعد العهد بالجيل الذي شهد بغداد القديمة وامتدت به الاجيال ليشهد بغداد الناهضة المتطورة المتطلعة الى كل جديد وطريف.

والقفة وصفها محب الشرق الرحالة الفرنسي (بيير لوني) وصفاً اخاذا قال:

تلك الاترجة الكبيرة الطافية على بطن الماء، السارحة مع النسمات في الفجر والمساء، كأنها قطرة من الظلام في الضياء.

طيف تحدر من زنجية فسار على وجه اليم، بتعاويذ الدراويش والمتصوفة والمتبتلين، كرة من عنبر بين ظلال النخيل واطياف السعف الوارف، كأنها قهرمانة المتبخترة في القصر خلف استار الحريم، تروح لها المملوكات بمراوح سحرية من سعف كالذهب المسيول .

القفة.. الزخارف الشرقية، الشراع الطاني كجناح اليمام. الديكة تتصارع على سطوح المدن العربية.. المأذن والقباب رماح المسلمين مشرعة على الوثنيين وعبدة النار، خيط من الفجر سرح خلف مسارها على دجلة كانه صبابة من لجين في ظلم الليل الغاشي.

الف ليلة وليلة.. حكايا السندباد..

تغيب الشمس لتأوي القفة الى خدرها بين عرائش العنب وجنات البساتين.. والصياد ينشر شكبته امام شباك شهرزاد وقصر التاج حالما بالقماخ السليمانية وعفاريت الجان..

يا لسحر الشرق وعرائسه الطافيه في احضان الامواج (بتصرف) وفي بغداد:

كأنت شرائع الكرخ والرصافة تزدحم شطآنها بالقفف الراسية او الذاهبة والايبة بين الصوبين، كما كانت لها محطات ترسو عندها امام باب السيف حيث قهوة البيروتي ومبنى دائرة التقاعد اليوم، ومشرعة بيت النواب التي عرفت في العهد العباسي بمشروعة الساج، وعند مشارع قمرية والجعيفر والتكارتة وخضر الياس التي عرفت قبل الف من السنين باسم مشرعة الروايا، فمن الصوب الصغير كانت تنطلق القفاف محملة بالركاب ومتاعهم لترسو على ضفاف الصوب الكبير في شرائع المجيدية والمصبغة والمربعة والسراي، ومشرعة السيد السلطان علي حيث السبع ابكار وبستان (الانكروبوز) ذي الظلال الخضراء.

والقفة الكبيرة الواسعة العميقة من (ماركة) الحصان او البغل لا يجرؤ على قيادتها وادارة دفتها الا المهرة المتمرسون من اسطوات (القفجية)، وربما حدثت المفارقات التي لم تكن في الحسبان، من ذلك ما حدث في اواخر العشرينات للمرحوم اسطى عبود القفجي، فبينما هو يسير قفته في وسط النهر امام ما كان يعرف بـ (خان المواصلة) وهو مبنى المدرسة المستنصرية إذ وقع شجار عنيف بين حمارين متجاورين في القفة ادى الى هياجها وتبادلها العضات والركلات، حتى كادت القفة ان تشرف على الغرق، فلم يكن امام الركاب من خيار إلا ان يلقوا بانفسهم في الماء تاركين الاسطى عبود دور (التحكيم) بين المتصارعين!..

وكم من حوادث نزاع وشجار جرت بين هذا القفجي وذاك بسبب ان هذا نقل زبائن ذاك على غفلة من صاحبه، او لأن قفة هذا تتسع لاضعاف العدد من الركاب مما يجعله اكثر كسباً في كراوي عبريته، ومع ذلك فهما متساويان في عدد نوبات العبور، والقفجية وان اختلفوا فيما بينهما غير انهم متفقون منسجمون امام (البلامه)، ولهم مقهى صغير في سكة الجعيفر قريبا من بيت حنانش ابو الطرشي، كما كان لهم ملتقى في قهوة صغيرة هي اقرب الى الدكان قريباً من سيف بيت هندي في الكرخ، ولامثالهم مقهى عند شريعة السنك وما زال احدهم يتذكر بانه عبر اكثر من مرة اساطين دار الاعتماد البريطاني امثال برسي كوكس والمس بيل ما بين الجانبين.

وربما ادى التنافس بين ارباب الشغلة الواحدة الى السباب وتبادل الشتائم اثناء تلاقيهما وسط النهر.

وقد اوفر كل منهم قفته بجماعة من الركاب، انذاك لا يحسم (العركة) إلا تدخل الركاب الذين لايسلمون من ضربة مجذاف او لفحة مغرفة.

وكان القفجية يتباهون ويتيهون على اصحاب الزوارق بسعة قففهم في حمل ما يمكن حمله من حبوب ومتاع واثاث، غير ان (البلامه) يفتخون على اولئك بكون زوارقهم لا تتشرف الا بنقل العلماء والافندية والجلبية من موظفي السراي وتجار السوق والبندرجية والصرافين، وبكونها مسقفة بمظلة تقي (العبرية) حر الشمس، وذات مصاطب توفر الراحة والمجلس المحترم الوثير.

والقفف الكبيرة كانت تحتاج الى عدد من الغرافات يتولى صاحبها حمل واحدة منها، لان قيادتها تحتاج الى الغرف من الجانبين على اقل تقدير لتحتفظ بتوازنها، لذلك نراه يمتلك اكثر من غرافة واحدة حيث يعمد الى توزيع البقية على النشيطين من (العبرية) لاسيما الشباب والفتيان، وما هي إلا ضربات على وجه الماء الى الوراء حتى تنزاح القفة مسارحة الى الامام، والفرحة اتم ما تكون عند اقترابها من الشاطي واندفاع الركاب كل الى وجهته. صور من ذلك الجيل:

لقد افتتن الاجانب بمظهر هذه الواسطة النهرية البسيطة فالتقطوا لها الصور العديدة وخلدوها في لوحاتهم وكتبوا عنها الخواطر والذكريات، والداخل الى قصر طبيب العائلة المالكة سابقاً في العراق، الدكتور سندرس، يطالعه، اول ما يطالعه، قفة بغدادية صغيرة في مدخل الحديقة، تذكره ببغداد وبتلك الفترة التي امضاها في بيته الكبير الذي سماه (النخيل).

كما اعجب بها العلامة احمد تيمور باشا فطلب من الشاعر المرحوم (محمد الهاشمي البغدادي) يزوده بصور عنها ويكتب بحثا في التعريف بها، وظهر البحث في جريدة (المحروسة) التي كان يصدرها المرحوم (الياس زيادة) والد الانسة (مي). كان ذلك اوائل العشرينات يوم كان الهاشمي يتلقى دروسه في الجامعة المصرية القديمة.

ولن ينسى عشاق بغداد القديمة ان يحدثوا ابناء بغداد اليوم في حالهم الزاهر عن امسهم الدابر، وان ينقلوا في حكايات اسمار الليالي تلك الصور الزاهية التي لن تستطيع ان تذهب بها الاحداث، منها صورة حفلة عرس انتقلت (الزفة) فيها من شريعة الكرخ الى شريعة (المجيدية) في احدى القفف يتبعها سرب منسق من قفاف اخرى حفلت بالزغاريد والبستات والمربعات، او صورة الموقوف الذي القى بنفسه في النهر فيضطر نفر (الجندرمة) ان يلقى بنفسه هو الاخر من بعده لاعادة القبض عليه و(القفجي) الحائر يصرخ بينهما مولولا معربدا لضياع (الكروة) عليه او طيف مجموعة من نسوة الطرف يخمرهن السوداء صعدن القفة وهن ساخطات لاغطات شاكيات من انتهاء الدوام وغلق باب المحكمة الشرعية دون الحصول على قرار بحق ازواجهن!..

او صورة مجموعة من ظرفاء محلة الشيخ صندل وسوق حمادة وسوق الجديد استقلوا قفة وارسوها امام باب السيف ازاد شريعة الزركشي، على نية قضاء سهرة رمضانية من ليالي الشهر الكريم، فالتقوا حول شيخ الظرفاء في ذلك العهد المرحوم (عبد الله الخياط) وضج مجلسهم من حكايات ونوادر وذكريات حتى السحر. ثم غلبهم النوم فناموا!.. ولم يستيقظوا إلا وهم في (الدورة) عند بستان

المرحوم (عبد الحميد الهبش) وتبين لهم فيما بعد ان الخياط هو الذي رفع المرساة واوقفهم، في هذه المكيدة.

شاعران في القفة!

وحدثني شاعر ثورة العشرين الشيخ عبد الرزاق الهاشمي البغدادي رحمه الله (ت – ١٩٦٤) ان الشيخ داود الحيدري تنبه يوماً من الايام الى وجود قفتين ترسوان على شاطيء مشرعة السبع ابكار امام السيد السلطان علي وهما محملتان بالنفائس من المخطوطات فقام الشيخ بدورة باطلاع شيخ السجادة الرفاعية في العراق السيد ابراهيم الراوي الرفاعي على العملية، فقام السيد بدورة يضبط الجريمة والوقوف على حقيقة الأمر، ولعل ذلك كان هو الدافع الى تأسيس مكتبة الاوقاف التي هي اليوم من منارات العلم والهدى والعرفان في الديار البغدادية.

وعلى ذكر الشاعر الهاشمي البغدادي – رحمه الله – نقول ان المرحوم معروفا الرصافي قام يوما بزيارة الهاشمي في مقره بمجلس التمييز الشرعي فاستضافه الرجل في بيته في محلة الشيخ صندل وصعد الاثنان في قفة من شريعة السراي ليعبرا بها شريعة بيت النواب – وعرف المرحوم (امين القفجي) ان دفته الشهيرة بنظافتها تتشرف – وهي طافية على صدر دجلة – بنقل شاعرين كبيرين من شعراء بغداد، احدهما كرخي والاخر رصافي. فطلب اليها ان يقولا فيه شعرا فضحك الرصافي وقال مرتجلاً:

ركبنا قفة سارت
على الامواه ممشاها
امين قادها فاصعد
لصوب الكرخ مسعاها
وقال الهاشمي
كمثل الفلك إذ سارت
ودارت إذ صعدناها
فباسم الله مجراها
وباسم الله مرساها

وادوار اخرى:

كما استخدمت القفة الى جانب معاصرها (الكلك) في نقل الكثير من الاثار الحضارية واللفط والنقوش والتماثيل التي قام بسرقتها الانجليزي الجنسية (هنري لايرد) والذي قدم الى العراق من تركية بعد ان اتصل هناك بالسفير الانجليزي لدى الباب العالي، فتم التنسيق بينهما على اجراء حفريات في بقايا نينوى وغرود.

وقام (لايرد) بابشع السرقات التي عرفها تاريخ الفنون. فالتمثال الذي لايستطيع حمله لفخامته او (لسو) قاعدته كان يعمد الى قطع رأسه او بتر ذراعه تمهيداً لنقل الجزء المقتطع واخفائه قريبا من الشاطئ وحمله في الكلل او القفة الى بغداد فالبصرة، ومن عام ١٨٤٥م الذي شهد بداية عمليات السطو على اثار الرافدين كانت القفف تستخدم لمثل هذه العمليات رغما عنها.. وبعد:

فقد حفلت الحكايات والامثال والمواويل البغدادية بالكثير من المأثولات حول هذه الواسطة العزيزة التي رافقت ابن الرافدين سنوات طوالا وجعلت امواج النهرين تردد تلك الابوذيات على نغمات الناي، ولقد تسنى لكاتب هذه السطور ان يشهد اوائل الاربعينات عند منحدر شريعة (قمرية) امام المدرسة العمرية آخر القفف متروكة على الحرف تردد مرثية الزمان، تركها صاحبها والاطفال يعبثون بها، ثم شهدها تتحطم ليلقى بها طعاما للنار، ويوم اختفت القفة من مسرح دجلة الخالد واصلت الزوارق حياتها بمكاش تعينها على العمل والحياه، ولم تخفف كلمة هيرودوتس في كتاب رحلته يوم قال عنها: انها زوارق مدورة تشبه السلال،، وبقيت كلمة (جيمس بكنغهام): انها زوارق مكورة شبيهة بالسلال تغطى بالجلود، ينطبق عليها عين وصف الجلود التي كانت تستخدم في هذه الانهر في سالف العصور.

أحمد سوسة سلط الضوء على فيضانات بغداد في التاريخ

كوثر جاسم

شهدت بغداد فيما عدا ايامها الذهبية اياما سوداء ذاقت فيها من المصائب والمحن اشدها هولا وامضاها فتكا من طواعين الى حرائق، ومن حرائق الى زلازل ومن غزوات الى حروب دموية حتى طغى جبروت الفيضان، فاصبح الخطر الاكبر على حياتها بعد ان صار الغرق يغزوها بين الحين والاخر، ومن المؤسف حقا ان تغدو ثروة العراق المائية برافديها العظيمين دجلة والفرات مصدر تخريب وتهديد بعد ان كانت من اهم العوامل في نشوء الحضارة البشرية في مختلف العصور التاريخية فاصبحت نقمة الحياة بعد ان كانت نعمتها..!!

وقد يستغرب المرء حين يطلع على ماعانته مدينة بغداد من طوامي الفيضانات المتتالية كيف قاومت اهوالها واستمرت عاصمة لاعظم امبراطورية اسلامية عرفها التاريخ مدة تربو على خمسمائة سنة..! فقد ترك لنا المؤرخون في كتبهم الكثير من اخبار عن هذه الفيضانات، التي اصابت المدينة في مختلف ادوارها التاريخية، فسببت لها كوارث ومصائب خرجت منها وهي محافظة على كيانها مقاومة ويلاتها واهوالها اكثر من الف عام. وجاء في رواية احدهم ان هارون الرشيد الخليفة العباسي اضطر في احد الفيضانات الخطيرة الى اللجوء الى السفن فانتقل اليها هو وافراد عائلته وحاشيته الى البر، ويذكرنا هذا الحادث التاريخي ماحدث قبل الاف من السنين حين انتقل نوح (ع) هو واهله وماحمله معه الى الفلك لينجو من الطوفان العظيم فظلت سفينته تقاوم الاعاصير والعواصف والتيار والامطار حتى اخذت تهدأ ثورة الطبيعة شيئا فشيئا فغادرها بعد ظهور البر.. ويرتبط موضوع الفيضان ارتباطا وثيقا بتاريخ العراق بما فيه من منشآت الري ومشاريعه كالسدود والخزانات والمصارف والجداول حيث لايمكن البحث في احدهما دون الرجوع الى الاخر، فخطر الفيضان يزداد باهمال هذه المنشآت وتقل بل يزول في حالة تنظيمها وصيانتها ورقابتها والاهتمام بتطبيق مناهج استخدامها.. واذا استعرضنا تاريخ ري العراق والى جانبه تاريخ حوادث الفيضانات التي شهدتها بغداد منذ تأسيسها حتى يومنا هذا نجد ان منطقة بغداد قبل عهد المنصور ثم مدينة بغداد في اوائل عهدها كانت تتمتع بمقدار كبير من الحماية من خط الفيضان وذلك لوجود مشاريع ري ضخمة كالسدود والخزانات والمصارف والمبازل والجداول التي كانت تسحب كميات كبيرة من مياه فيضان الانهر والروافد تقلل من خطر الفيضان على مدينة بغداد، ولكن هذا الدور لم يدم طويلا فدب الضعف في جسم الدولة العباسية واستفحل الاهمال في مراقبة منشآت الري ورقابتها فاخذت المشاريع تنهار الواحد بعد الاخر واندرست المصارف وتراكمت الرواسب في الجداول حتى صار الفيضان مصدر الخطر الاكبر على المدينة فتوالت عليها النكبات بسببه بعد ان اخذت كل مياه الانهر ومنها مياه نهري ديالى والعظيم تنحدر صوب بغداد فتهددها بالغرق..وتناول الفصل الاول في كتاب (فيضانات بغداد) لمؤلفه (الدكتور احمد سوسة) نبذة عن نهري دجلة والفرات، المنبع الاول والاخر للفيضانات وعوامل الطبيعة التي تسبب الفيضان في منطقة وادي الرافدين وهي الامطار والمناخ والحرارة والرياح وما الى ذلك من مواضيع تتصل بها كوصف العراق الطبيعي العام وطبيعة الفيضان في الوادي، وهنا تستوقفنا نقطة مهمة تتصل بتاريخ تكوين السهل الرسوبي في جنوب العراق وهو القسم الذي تقع فيه بغداد وقد كان لايزال معرضا لاخطار فيضانات انهر العراق..

ويتناول الفصل الثاني بالبحث موضوع الطوفان بصورة خاصة في بغداد كان لابد من عرض نبذة عن تاريخ خطط مدينة بغداد منذ تأسيسها سنة ١٤٥هـ فافرد المؤلف فصلا خاصا لذلك وهو الفصل الثالث الذي يشتمل على اهم المعلومات العامة عن تطور المدينة ويتناول الفصل الرابع حوادث غرق بغداد كما رواها المؤرخون في مختلف ادوارها العباسية وقد قسمها المؤلف الى ثلاثة ادوار يتميز كل دور منها بميزات خاصة به بالنسبة الى حوادث الفيضانات وعلاقتها بتاريخ ري العراق وتطويره..ثم تناول الفصل الخامس حوادث الفيضانات في عهد المغول والفرس والترك ويلي ذلك الفصل السادس الذي يتناول الفيضانات في عهد الاحتلال البريطاني للعراق وما بعده حتى يومنا هذا وينتهي الكتاب في الفصل السابع الذي تناول بالبحث مشاريع الري الكبرى التي اقيمت مؤخراً لمعالجة اخطار الفيضان والمشاريع الاخرى المقترحة لتحقيق هذا الغرض ويبدأ هذا الفصل بشرح السياسة البريطانية في العراق التي تتجلى فيها الاهداف الاستعمارية بإحلى مظاهرها اذ ترك البريطانيون الذين كانوا يوجهون سياسة الري في العراق اكثر من ثلاثين سنة بين سنة ١٩١٧ و ١٩٥٠ ومدينة بغداد وما يتصل بها من قرى ومزارع تتقاذفها غزوات الفيضانات بين حين واخر مهددة كياننا الاقتصادي بالانهيار في كل سنة دون ان يقوموا بأي مشروع كبير تعالج فيه مشكلة الفيضان معالجة اساسية وكان ذلك تنفيذاً للسياسة التي رسمها المندوب المدني البريطاني سنة ١٩١٩ التي تنص على وجوب حصر اعمال الري بتحسين المشاريع الصغيرة القائمة وتجنب انشاء مشاريع ري كبيرة جديدة وقد بقيت هذه السياسة متبعة بالنسبة لمشاريع الري الكبرى اكثر من ثلاثين سنة وبقيت بغداد تعتمد على السداد الترابية في مكافحة الفيضان حتى اسس مجلس الاعمار في العراق سنة ١٩٥٠ فشرع بإنشاء مشاريع الري الكبرى وفي مقدمتها مشاريع وقائية ضد الفيضان فأنشأ مشروع الثرثار على نهر دجلة ومشروع الحبانية على نهر الفرات ومشروعي خزاني دوكان ودربندخان على نهري الزاب الصغير وديالى.

ميخائيل نعيمة في بغداد

قراء العربية جميعا يعرفون من هو الاستاذ ميخائيل نعيمة، انه علم من اعلام الادب العربي الحديث، وشاعر من شعراء العربية المجددين، انه البقية الباقية من اساطين الشعر والبيان في الجيل الماضي، فهو صنو جبران خليل جبران وايليا ابو ماضي، وهو معاصر الرصافي وشوقي والجارم.. وقد كان الاستاذ نعيمة احد ضيوفنا في مهرجان بغداد – الكندي حيث ظهر في ندوة تلفزيونية، قدمه السيد جميل الجبوري بقوله "ان الاستاذ ميخائيل نعيمة اديب عرفه الشرق انسانا مفكرا.. فلسف الادب وادب الفلسفة، هذا الاستاذ الذي اعطى للفكر العربي الخلاق نتاجات رائعة، وصور بالكلمة الشاعرة همسات النفوس وفيض الوجدان والخواطر الجميلة الشقراء".

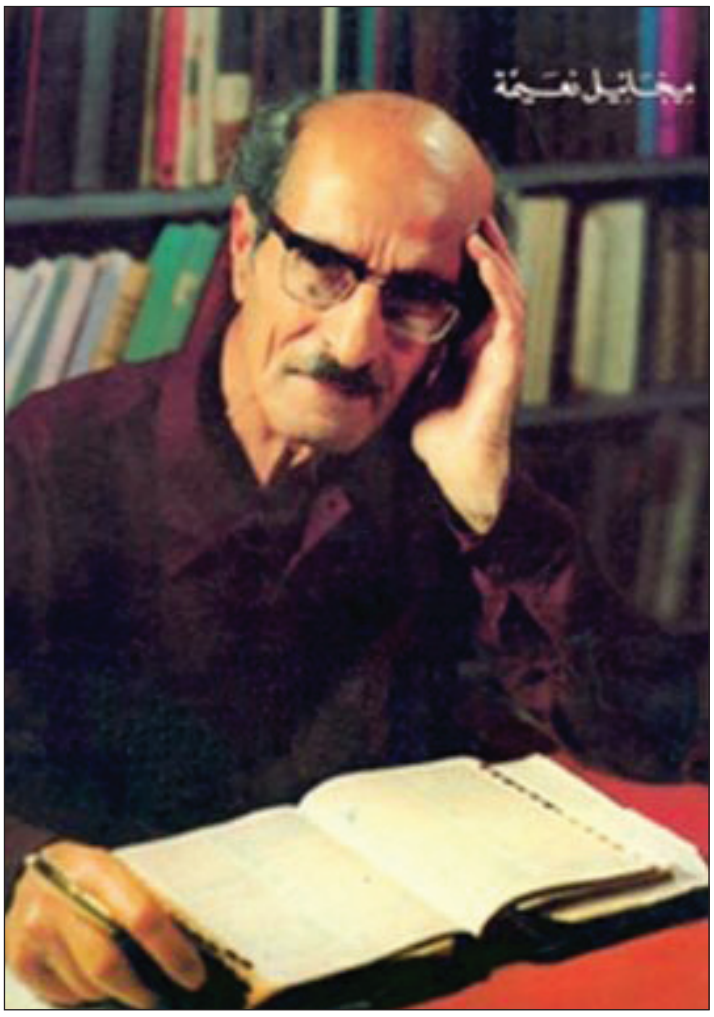

وفيما يلي بعض ما دار في هذه الندوة التاريخية:

× اهلا بكم سيادة الاستاذ في محطة التلفزيون.. حبذا لو تفضلتم بالحديث الى مشاهدينا عن انطباعاتكم وما تركته هذه الزيارة القصيرة التي نرجو ان تكون اطول بالمستقبل في نفسكم بهذه المناسبة وما انطبع في نفسكم عن احتفالات بغداد والكندي..

تعود الناس.. اكثر الناس.. على ان يردوا الاحداث والامور الى اسبابها القريبة.. واني في هذه المناسبة لو شئت ان ارد الفضل في زيارتي لبغداد التي هي زيارتي الاولى لقلت ان الفضل يعود الى لجنة الاحتفالات.. اما في الواقع فالفضل يعود الى المنصور الذي اسس بغداد، والى الكندي الذي رفع اسم بغداد بما ابقاه لنا من فلسفة ومن اعمال عظيمة، وليس المهم هاهنا ان ارد الفضل الى اصحابه فاصحاب الفضل كثرة، والمهم اني وجدت نفسي لاول مرة على هذه الارض الخيرة التي هي ارض العراق وبين اخوة غمروني بفضلهم وبعطفهم وبلطفهم وبكرمهم.. فوجدتني وكأنني في دنيا من السحر.. بغداد القديمة قرأت عنها الشيء الكثير، والكندي ان لم اكن طالعت شيئا من مؤلفاته فقد سمعت عنه كذلك.. الا ان الذي استرعى انتباهي بالدرجة الاولى وافعم صدري بالفرح هو ان بغداد التي وقفت في ايدي المغول سنة ١٢٥٨ بقيت تتقهقر عاما بعد عام الى ان كان عام ١٩٥٨ واذا ببغداد تنفض غبار الاجيال عنها وتنهض من كبوتها وتمضي تجدد مجدا غير المجد الذي كان لها في ايام الخلفاء العباسيين ذلك مجد لم يخل من الظلم ولم يخل من التعسف ولم يخل من الاثرة ذلك مجد قام على اكتاف قلة.. اما الان فهو مجد يقوم به الشعب.. يقوم به اهل العراق... وهذه المدينة التي ابصرتها في الايام القليلة من وجودي هاهنا انها كالطائر الاسطوري الذي يموت ثم يعود من جديد.. ان بغداد الجديدة تبعث حية.. ان بغداد الجديدة لا تخشى ان تهدم اذ هي تبني.. وهناك الشعوب التي لا تعرف قيمة الهدم ولانها لا تعرف قيمة الهمم لا تعرف قيمة البناء. بغداد نامت سبعة قرون ولكنها لم تندثر، واليوم كما تعرف كانت لنا نزهة جميلة جدا الى الحلة حيث اثار بابل القديمة.. بابل نامت ولا تزال نائمة.. بابل اندثرت ولن تقوم.. اما بغداد فنامت وهي اليوم في وثبة عظيمة هائلة.. واود لهذه الوثبة ان لا تقف عند حد.. اود لهذا البناء ان لا يقف عند حد.. اود للقديم البالي ان يندثر.. واود للجديد النشيط ان يندفع في طريقه الى الامام..

ومما اسعدني كذلك ان اجد هنا اصدقاء كثيرين لم اكن اعرف عنهم شيئا ولكنهم كما يبدو كانوا يعرفون الشيء الكثير عن ميخائيل نعيمة.. وليس الذ لقلب كاتب من ان يلتقي بقرائه وجها لوجه.. ليس الذ من ان تقع العين على العين وان ينطلق من القلب ما يجد طريقه لا الى الاذن فقط، بل الى القلب مباشرة.. واظن ان لقاءاتي مع بعض هاهنا ولم التق منهم الا العدد اليسير كانت من هذا النوع من اللقاءات.. لقد كانت لقاءات قلوب.. لقاءات ارواح.. وارجو ان تستمر هذه اللقاءات في المستقبل..

× شكرا يا استاذ لهذه العواطف الكريمة ونحن نرجو ان نكون وتكون بغداد دائما عند حسن ظنكم وعندما تحبون لها.. سيادة الاستاذ قرأ لكم القارئ العراقي الاديب والمتأدب في كثير مما انتجتموه.. همس الجفون، والغريد، والاب والنيون، ومذكرات الاورفش ومرداد، وكرم على درب، وفي مهب الريح، وفي دروب، ولا استطيع للاسف الشديد ان احصى كل ما كتبتم.. ترى هل لكم ان تحدثوا المشاهد الكريم ما هي نشأتكم الادبية؟ او على الاقل اضواء على هذه النشأة الادبية الرائعة..

احسنت اذ قلت ان اطرح بعض الاضواء عليها .. اما ان استطيع تحليلها واين بدأت وكيف بدأت فهذا فوق طاقتي.. واظن فوق طاقة اي اديب او اي انسان .. وجل ما استطيع قوله بهذه المناسبة هو انني ما ان بدأت اقرأ حتى بدأت اتذوق الكلمة.. فكان للكلمة ضرب من السحر عندي.. وما ان اتقنت شيئاً من النحو واصبحت لي قدرة ان انسج العبارات ثم ازاوج العبارات حتى بدأت اشعر وكاني ملتصق بالكلمة كما يلتصق الجنين بالرحم.. فلا انفصال بينهما على الاطلاق.. وهذا الحب للكلمة بدأ يسوقني عن غير وعي مني في البداية الى ان اخذت

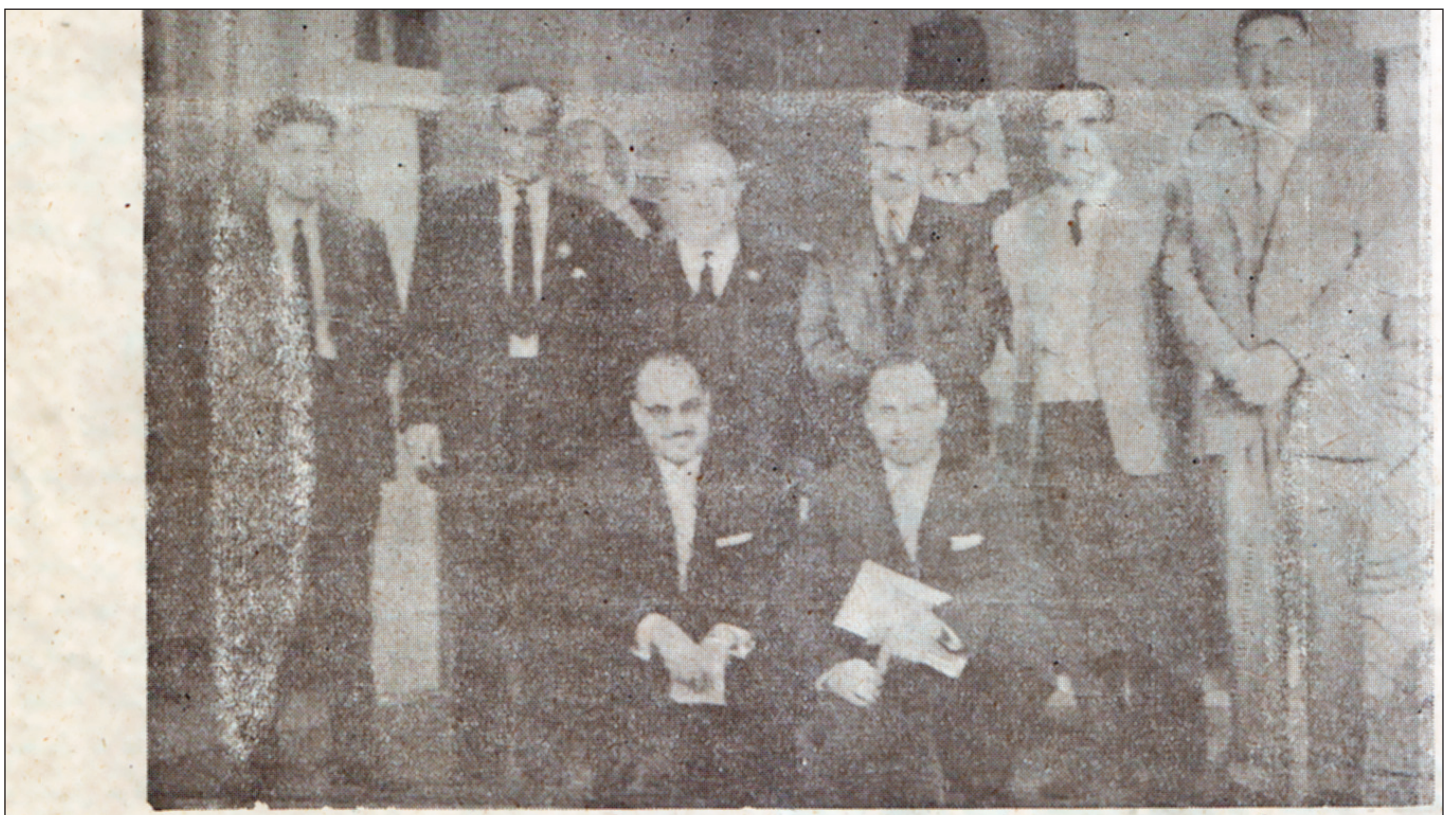

التقطت هذه الصورة التذكارية اثناء زيارة الاستاذ ميخائيل نعيمة للتلفزيون ويظهر فيها حضرات السادة : الواقفون من اليمين الاستاذ فؤاد عباس • المقدم عبدالستار رشيد مدير الاذاعة والتلفزيون العام ، الاستاذ ميخائيل نعيمة ، الدكتور مصطفى جواد ، الدكتور حسين امين ، الاستاذ عبدالجبار ولي مدير البرامج • والجالسان الاستاذ سالم الالوسي والاستاذ جميل الجبوري •

جلسة تذكارية بين سيادة المقدم عبدالستار رشيد مدير الاذاعة والتلفزيون العام (الى اليمين) والاديب الكبير الاستاذ ميخائيل نعيمة .

اتعرف على بعض الادباء وبعض الكتاب من خلال مؤلفاتهم.. وانا لا ازال تلميذا في دار المعلمين الروسية في الناصرة.. هنالك كان للحظ ان اقرأ الشعر وان احفظ الكثير من الشعر، درسنا المتنبي والبحتري وابا تمام ودرسنا الشعر الجاهلي، وفي الحال حيثما وقعت على بيت جميل كان يغريني ان انظم مثله .. كان يقربني ان انسق الصدور والاعجاز وان تتكون لدي قصيدة.. ذلك بالطبع كان ميل شاب لايزال في سن المراهقة.. عندما كنت في دار المعلمين في الناصرة كنت بين الثانية عشر والسادسة عشر ومن بعد الناصرة انطلقت الى روسيأ.. حيث اتقنت اللغة الروسية كاهلها وهنا انفتحت امامي افاق واسعة.. افاق الادب الروسي الذي هو باعتراف اكبر نقاد العالم في قمة الاداب العالمية عندما اطلعت على هذا الادب الجميل الواسع الغنى الزاخر ولدت في رغبة هائلة في ان انظم الشعر كما ينظمه الروسي، ان اكتب القصة كما يكتبه الروسي.. وهكذا بدأت انظم الشعر باللغة لروسية.. وكانت من اولى القصائد التي نظمتها باللغة الروسية قصيدتي التي ترجمتها فيما بعد الى اللغة العربية.. قصيدة النهر المتجمد.. اذكر اني نظمت هذه القصيدة بمناسبة مكوثي شتاء كاملا في قرية من قرى الولاية التي ادرس فيها وهذه القرية كانت قائمة على ضفاف نهر يدعى نهر "سوللا".. وتعرفون ان في روسيا البرد فارس والشتاء طويل وهذا النهر كان يتجمد في الشتاء بحيث يصبح في استطاعة عربات الخيل والرجال والنساء.. الخ.. ان يمروا على الجليد كما تمر الان على الاسفلت، واتفق لي ان قطعت ذلك النهر ذهابا وايابا عدة مرات على الجليد.. فاستوقفتني هذه الفكرة ان هذا النهر امس كان بكر.. امس يجري .. امس كان يغني .. امس كان ينشد.. والان تجمد فلا تسمع له صوتا ولا تبصر له وجها الا هذه الصفحة من الجليد التي تغطي وجهه.. فنظمت هذه القصيدة باللغة الروسية.. وختمتها بخطاب اوجهه الى الشعب الروسي ذاته..

ولا بأس اذ ان ذكرت هذا الامر لابين لك شعوري عندما كنت شابا.. شعور الالم الذي كنت اعانيه لمجرد نظري الى شعب مظلوم.. الشعب الروسي كان يعاني من الالام ما لايطاق.. شعب لم يكن له اي حقوق وفي الاخص الفلاحين والعمال.. وهذا الشعور تولد عندي انه من الحرام لهذا الشعب الذي يتعب والذي يكدح.. ان يعيش عيشة زرية كالعيش الذي كان يعيشه في روسيا. لذلك ختمت قصيدتي في خطاب الى روسيا بل ما اختمه بالعربية غيرت النهاية وانهيت القصيدة بخطاب اوجهه الى قلبي.. وكنت في خطابي للروس اقول:

لابد ان الربيع سيأتي للنهر وسينفك النهر من عقالاته ويعود فيكر الى البحر.. الخ.. فيغني .. اما انت يا روسيا متى ياتيك الربيع؟ متى تبصرين شيئا من الانفراج؟ .. متى تبتسمين؟.. متى تزهر ايامك؟ متى يتفوق الشعب البسيط الفقير هنا شيئا مما يمكن ان تدعوه السعادة؟..

ثم اجيب عن روسيا وروسيا لا تجيبني.. اقول لها انت لا تجيبيني يا روسيا.. نامي يا حبيبتي.. اما بالعربية فاختتم القصيدة بخطاب اوجهه الى قلبي فاقول: ان قلبي غدا كالنهر.. النهر سينفك من عقاله اما قلبي فلا..

مع الشكر الجزيل استاذ.. على ذكر قصيدة النهر المتجمد.. نذكر اخي.. ونذكر همس الجفون، ونذكر الروائع الاخرى.. بدأتم شاعرا ناقدا.. ترى لم تركتم الشعر والنقد الى القصة والمقالة؟

بدأت كما ذكرت بالشعر.. ثم انتقلت الى النقد بعد ان انتقلت الى الولايات المتحدة الامريكية.. وكانت الظروف دفعتني الى الكتابة لاني انقطعت عن العالم العربي بتاتا عندما كنت في روسيا.. واذا بمجلة تأتيني من صديق قديم لي ورقيق في الناصرة اسمه "نسيب عريضة" عندما اتصل بي تذكر رفيقه القديم في الناصرة وقال هات ابعث لنا بمقال وكان ان صدر في ذلك الزمان اظن كتاب جبران "الاجنحة المنكسرة".. طلب الي رأي.. قرأت عن الاجنحة المنكسرة تقاريض عديدة في الصحف العربية في المهجر في ذلك الزمان..

انا كنت بعيدا عن نيويورك.. كنت في الطرف الغربي من الولايات المتحدة.. وجبران كان في نيويورك في الطرف الشرقي.. ولم اكن اعرف جبران في ذلك الوقت وجبران لم يكن يعرف عني شيئا.. قرأت كتاب جبران الاجنحة المنكسرة وقارنته بالادب كما فهمته في روسيا.. فوجدته بعيدا جدا عن المستوى الذي كنت قد ادركته انا بذهني وقلبي..

انه محاولة رومانطيقية فيها كثير من الوصف وفيها الكثير من التفجع ولكن لا يمكن ان تدعوه قصة او رواية، انه شيء من الشعر.. لذلك كتبت اول مقال نقدي كان عن الاجنحة المتكسرة لجبران. عندما بلغ المقال نيويورك واطلع عليه جبران ضرب كفا بكف وقال لنسيب عريضة: اين كان هذا الرجل ميخائيل نعيمة؟.. لماذا لم نسمع به قبل الان؟ .. هذا يعرف كيف يكتب.. هذا يعرف كيف ينقد..

وذلك كان بدء حياتي النقدية.. حياتي في النقد، واخذت ابدع في النقد لانه كان من الضروري ان اشق لي طريقا.. لاعطي ادبا جديدا.. الادب التقليدي.. في العالم العربي في ذلك الوقت.. كان ادبا باهتا جامدا لا حياة فيه ولا صلة بينه وبين الحياة التي يحياها الناس.. لذلك كان من دوافعي الاولى ان امهد الطريق ان اقتطع تلك الاشواك وان افتت تلك الصخور التي كانت تملأ الطريق وادل الناس على نهجي الجديد ادل الناس على ادب حقيق كما فهمته انا.. ولذلك انطلقت في النقد.. وكانت مهمتي الاولى كما قلت ان ادل العالم على الادب الحي على المعنى الجديد للادب، وعندما انتهيت من هذه المهمة بنهاية كتاب "الغربال" شعرت ان العالم العربي اخذ يتذوق الادب بطريقة جديدة.. ولذلك تركت المجال لغيري اما انا فانصرفت في الطريق الاخر.. انصرفت في طريق التفكير الجدي في الحياة واعماقها ومعانيها الى ما هنالك.

ثم استمر الاستاذ ميخائيل نعيمة يجيب على الاسئلة اجابة واضحة رقيقة بعبارات شيقة يفيض من خلالها عبير الذكريات العطرة ذكريات حياة ادبية حافلة بكل الوان الادب الرفيع ومن دواعي الاسف ان لا نوفق في الحصول على بقية الحديث في هذه الندوة التاريخية.

فيصل الثاني اثناء افتتاح مبنى الاذاعة

مجلة الاذاعة والتلفزيون 1962

الحمامات البغدادية ...

جمعت بين الدين والأعراف والعمائر

مازن لطيف

تعود ظاهرة(الحمامات) عبر التاريخ لأسباب خدمية أضطلعت بها مفردات العمائر في الحياة الحضرية . وتعود جذور الأمر الى أزمنة قديمة ويرجعه الباحثون الى بابل أو قبلها في العراق القديم . وحدث أن أقتبسها اليونان ثم تلاهم الرومان إبان حقب التلاقح الحضاري بين الشرق والغرب. بيد أن الأمر نسب تباعا للرومان من ضمن حيثيات المبالغات والمغالطات التي دسها الغرب في مدونات التاريخ ، ويمكن أن يكون حمام كركلا الملك الشامي الآرامي الذي حكم روما و شيّد أكبر الحمامات شهرة في التاريخ بين أعوام ٢١٢و٢١٦ق.م يدلل على الأصول الشرقية لهذا الضرب من الوظائف المدينية. وقد بالغ كركلا بما سجي من نزعة للخيلاء القيصري،و نفخ في المعلم حتى أتسع فضاء ذلك الحمام الى مجمع بنائي يتربع على عشرة هكتارات تقريباً ويحوي على البهوات و المغاطس والخلوات وحتى أماكن التسلية كالقاعات الرياضية والمكتبات والحدائق والأروقة.

ويحكى عن (بلاش) ملك الساسانيين في المدائن(طيسفون) (من عام ٤٨٤ م - ٤٨٨ م) بأنه أمر بإنشاء الحمامات للعامة من العراقيين المتعودين عليه ، لكنه جلب على نفسه سخط الكهنة المجوس، لأنهم رأوا في ذلك انتهاكا لحرمة الدين. ولما جاء "قباذ" الساساني بعد ذلك واستولى على مدينة (آمد) أو ديار بكر الآرامية في شمال الرافدين ، ودخل أحد حماماتها العامة ، سر وتمتع به كثيرا ، وأمر أن يبنى حمام مثله في كل مدينة بالمملكة. ويؤكد الأمر الطبري في تأريخه، بأن الفرس لم يكن لهم قبل الإسلام حمامات .

ويحكى عن أبي بكر السلمي (المتوفى عام ٣١١ هـ -٩٢٣ م) أنه قيل له : لو حلقت شعرك في الحمام : فقال : لم يثبت عندي أن رسول الله (ص) دخل حماما قط (طبقات السبكي) .وفي مطالع البدور ج٢، وينسب الى الإمام علي بن أبي طالب (ع) قولا نشكك به لخلافه مع طباع الإمام والمنهج الإسلامي،بأنه قال : بئس البيت الحمام، تكشف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات، ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله. ويحكى عن "الزمخشري" المعتزلي إنه قال : ويكره أن يعطي الرجل – امرأته – أجرة الحمام، لأنه يكون معينا لها على المكروه. وقد ذكر الخليفة القاهر عام ٣٢٢هـ – ٩٣٤ م عن أحد سلفه أنه بنى (حمامات رومية للحرم) (مسكويه ج٥) . ومكث حتى اليوم المتشددين من المسلمين ينظرون إلى اتخاذ الحمامات العامة نظرة الارتياب.

وكلمة (حمام) وارد من كلمة "حمى" العربية التي تعني الحرارة المفرطة.ووردت متراكبة بصيغة(حمام تركي) لدى البعض بالرغم من أن الأتراك لم يتداولون الحمامات في بداوتهم السابقة في آسيا الوسطى،ومارسوها بعد الإسلام من ضمن ما أكتسبوه. ولم تكن الحمامات في الحضارة الإسلامية وليد صدفة وحاجة آنية اقتضاها توق ناس وردوا من بيئة الصحراء كما يشاع، لكنها جاءت سياق من ضمن نفحات الإسلام الأخلاقي الواردة من ثراء روحي محلي سابق بدهور، دعى وجسد طقوس التعمد والتندي والصب والتشطف والوضوء على درجاته وحاجاته ومكث حيا عند الصابئة المندائية وطقوس(المندي) العراقية، وولج المعمدانية دين النبي يحيى(ع)،ثم المسيحية بعمق وتقمصته شعوب أخرى كما الهنود ،ومارسته حتى اليوم.

وقد أمست النظافة سمة المؤمن التي كانت يوما محل تندر الغربيين على المسلمين في بؤر التلاقح والإقباس في الأندلس وجنوب أوربا والبلقان، حتى نعت نصارى الأندلس مسلميها غمزا ووصفوهم (كالوز الشغوف بالإغتسال). وأقتبست تلك الشعوب تباعا كل تلك الطقوس وتصاعدت به،وأصبح لصيقا بهم ،و تناسى القوم نسبها لأصلها وجالبها الأول من الشرق القديم.

وعلى خلاف الحمامات "الطبقية" لدى الإغريق والرومان التي أختصت بعلية القوم فأن المسلمين جعلوها مشاعية وعامة،و أدخلوا فيها الجانب القيمي ونبذوا الإبتذال. ومن الأمور التي وردت في التراث الإسلامي عملية (التدليك) كنوع من العلاج الطبيعي ومكث في كل حمام (مدلكجي) مختص يفخر بحذقه المحل ،وعمل به حلاق للشعر كما كان يلحق به مطعم شعبي. واقام المسلمون في الحمام غرف البخار (الساونا)،و أدخلوا شبكات المياه في مواسير الرصاص أو الزنك إلى البيوت والحمامات والمساجد. وقد أورد كتاب "صناعات العرب" رسما وخرائط لشبكات المياه في بعض الحواظر الإسلامية. ومعروف أن الكيميائيين العرب قد اخترعوا أنواع متطورة من الصابون و منه الملون والمعطر، وآخر للعناية باليدين والقدمين.

وأهتم الأمويون في الشام بالحمامات، ونجد من تلك الحقبة(٦٦٠-٧٥٠م) أمثلة كثيرة مازالت تائهة في البوادي وحافظت على كينونتها الاولى. أما معالجات الحمام الزخرفية فلم تكن إسلامية البته، وإنما لفنون محلية أقدم، ففي قصير عمرة في البادية الأردنية(٩٧هـ- ٧٢٢م) وكذلك الحال في حمام الصرح (١١١هـ- ٧٣٦م) الواقع في البادية الأردنية، نجد الرسوم التجسيدية والحال عينه تكرر بعد قرنين في حمامات سامراء حيث كانت الدرجات تزين بالصور بدلا من البلاط القاشاني الملون، وقد ذكر المسعودي أن الناس كانوا يصورون العنقاء في الحمامات، والعنقاء صورة لحيوان خيالي ،أسطوري عند الشرقيين، ويتمثل بطائر وجهه وجه إنسان، وله منقار نسر، وأربعة أجنحة من كل جانب ويدان ذوات مخالب. وكانت الحمامات تطلى بالقار وتسطح به، حتى يخيل للناظر أنها مبنية من رخام . وكان هذا القار يجلب من عين بين البصرة والكوفة يمكن أن يكون "ذي قار" أو الناصرية اليوم.

وقد قدر عدد الحمامات في بغداد وحدها في القرن الثالث الهجري (٩٥٥ م) حوالي عشرة آلاف حمام. وبالغ بعض المؤرخين في العدد حيث ورد عند اليعقوبي أن ثمة خمسة آلاف حمام في الجانب الشرقي(الرصافة) من بغداد في القرن الثالث الهجري ، وكان في جانبي بغداد في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عشرة آلاف ، وفي النصف الثاني

كان بها خمسة آلاف فقط وهذا العدد لم يزل في نقصان، حتى يذكر في القرن السادس أنه كان في بغداد ألفا حمام. وبذلك يمكن اعتبار ميزان وسع المدينة و عدد ساكنيها وأهميتها مقرون بعدد حماماتها . أما بمصر فلم تكن العناية بإنشاء الحمامات كبيرة مثل ما كانت بالشام مثلا. ويذكر لنا المقريزي أنه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما وكانت حمامات القاهرة في عام ٦٨٥ هـ – ١٢٨٦ م ثمانين حماما فقط. وكان يقوم بخدمة الحمام خمسة أشخاص على الأقل: حمامي ، وقيم ، وزبال ووقاد ، وسقاء – وكان الوقود في الحمامات في الغالب من الزبل اليابس. وفي البلقان انتشرت الحمامات ابتداءا من القرن ١٥ الميلادي وبقيت حتى عند أفول نجم الإسلام في بعض أجزائه كما هو الحال اليوم في حمام مدينة بودابست عاصمة هنغاريا التي مازال يستعمل حتى اليوم.ومن الجدير بالذكر أن الأقليم (السواحيلي) في شرق أفريقيا لم تحتو مدائنه على هذا الضرب من المعالم الخدمية، على خلاف كل المدارس الإقليمية للعمران الإسلامي.

ومخطط الحمام يتبع دائما المدرسة العمارية التي أنشئ في كنفها مع الاشتراك في تقليد القباب الوسطية التي غلبت عليها.وعادة ما يأخذ بالحسبان التدرج الحراري لحجرات الحمام وإضفاء أجواء الراحة على مكان الاستراحة الذي يزدان بخرير نافورات المياه. ويتكون على العموم الحمام العام من الفضاءات العمارية التالية:

(القميم او القمين) : بيت النار في الحمامات القديمة .(البراني) : غرفة خلع ملابس لتهيئة الشخص للدخول إلى الحمام وحرارته تكون عادية .(الوسطاني) : حرارته أعلى من البراني ، وهو مكان لتجهيز الداخل إلى الجواني بالأغطية والأدوات اللازمة للحمام . وكذلك لاعطائه الحرارة اللازمة للجوا ني وكذلك بالعكس لتهيئة الشخص الخارج من الجواني إلى البراني .(الجواني) : مكان الحمام " وهو دائما عالي الحرارة ويضم مجموعة من المقصورات (جمع مقصورة).

وللحمام الشعبي مدخل صغير يطل على الزقاق أو الشارع ويقود الى بهو مغطى كبير تصف فيه أرائك خشبية متعددة فرشت بالصير ، في حين يجلس صاحب الحمام قرب الباب الخارجية ، ومن ضمن اجواء وطقوس وعادات الحمامات البغدادية هو دخول الزبون وفي يده صرّة بداخلها الملابس التي يرتديها المستحم بعد استحمامه ، ويأخذ أريكة ويبدأ بخلع ملابسه الخارجية وبعد ذلك يأتي العامل في الحمام بوزرة جافة يعطها للزبون ليغطي جسمه بها ، يدخل الزبون إلى قاعة الغسل التي هي عبارة عن أقبية وقباب تتخللها بعض الكوات الزجاجية المربعة والمدورة يغرض الإنارة الطبيعية ، أما في الليل فتستخدم قناديل زيتية حتى جاءت الكهرباء التي تشح اليوم .وفي داخل كل قبو هناك أحواض منفورة في الحجر متوسطة السعة تحيطها من الداخل حنفيات متعدد يجلس حولها المستحمون لمعادلة (مكاسر) الماء الحار والبارد. وتقع في وسط القاعة دكة كبيرة وعالية مبلطة بالاسفلت يجلس عليها الزبزن للتعرق ويضطجع الزبون عليها لكل يأتي دوره في عملية التدليك، حيث يقوم (المدلكجي) بالحك بكيس اسود خشن يرتديه في يده، ويمرره بقوة ذهابا وإيابا على جسم المستحم .و بعد انتهاء التدليك يقوم المستحم بضرب طاسة الغسل الحديدية على الحوض الصخري بمعنى انتهائه من الغسل ويأتي العامل بالمنشفة للمستحم ليلف وسط الخصر وعلى كتفيه ورأسه قبل كلمات "حمامك عوافي" ليسلمه ملابسه وقبل ارتدائه ملابسه يشرب المستحم الشاي أو الدارسين.

ويكثر حضور الزبائن إلى الحمامات الرجالية في بغداد أيام الخميس والجمعة وفي المناسبات مثل الزواج حيث يحضر العريس وكذلك أيام العيد وغيرها والكثير من رواد الحمامات هم الحرفيون ، وتكثر الحمامات في الرصافة اكثر من الكرخ كونها اكثر سكاناً.

ونتذكر جميعا شغف العراقيين بالحمام وطقوسه ومناسباته والتفريق بين(حمام البيت) و(حمام السوق) وأمست الفوضى والجلبة التي تشيعها النساء في الحمامات مضرب الأمثال فيقال مثل (حمام النسوان).وتتناقل الأجيال عن حمامات مكثت حتى عقود قليلة ماضية و استأصلتها الحداثة المتهورة ونتذكر منها ما بني منذ قرون خلت وتعود إلى بغداد قبل ألف عام ونيف وكان واقعا في شارع المستنصر الذي يمتد إلى شارع الصابئة القديم . ونسب الى حيدر جلبي وهو من أثرياء بغداد في تلك العثمانية .ويذكر المرحوم جلال الحنفي بأن القوم ظنوا أن محلة الحيدرخانة تنسب إليه والأمر لم يكن كذلك.ومن أهم الحمامات البغدادية حمام بنجة علي ينسب هذا الحمام الى المقام والاثر المعروف ببنج علي ، وكان يقع بأزاء سوق الصفافير .وكذلك حمام حيدر الذي كان يمثل طراز حمامات بغداد القديمة ، والحمام منسوب الى حيدر جلبي احد وجهاء بغداد قبل اكثر من ٤٥٠ عام ، يقع في محلة راس القرية ، وحمام الراعي يقع في محلة الشيخ عبد القادر ، وحمام السيد يحيى في محلة سوق الغزل بسوق العطارين ، وحمام الشامي وهو حمام قديم يقال انه انشأ في القرن السادس عشر و يقع في علاوي الشيخ صندل ، و حمام المالح ،وحمام الجسر ، وحمام كيجة جيلر ، و حمام القاضي ،و حمام الباشا ، وحمام بكتاش خان ، وغيرها من الحمامات البغدادية وقد اختفت هذه الحمامات من بغداد وقد بقي في الفترة الأخيرة بعض الحمامات التي تعد على أصابع اليد لأسباب عديدة منها شيوع الحمامات في البيوت الحداثية وكساد حرفتها، واليوم قلت أكثر لأسباب امنية كما كثير من مرافق الحياة.

أما حمام البيت فيتألف في العادة من غرفة واحدة، او غرفتين متداخلتين . الاولى لتغير الملابس (المنزع) والثانية للاستحمام . وكان تسخين الماء يتم في المطبخ ، او من خلال موقد نفطي يقع تحت أرضية الحمام مباشرة . وكان وقود الحمام ، قبل استعمال النفط ، هو روث الحيوانات ثم استعمل الخشب. أما في الصيف ، فتستخدم النساء الحمام ، أما الرجال والأطفال فيستحمون ويطرطشون الماء في فناء الدار او الحوش المحفوظ من عيون الفضول، والذي أختفى في بناءات الحداثة المتضامة.

شيء عن الرصافي في القدس سنة 1920

رفعة عبد الرزاق محمد

كتب الكثير عن شاعر العرب الكبير معروف الرصافي، وتناول الكتاب جوانب مختلفة من سيرته وشعره، وعلى الرغم من كثرتها وتنوعها فقد بقيت حلقات مهمة من حياة شاعرنا، بعيدة عن اقلام الكتاب وتحقيقاتهم لاسباب كثيرة، ولعل لاستاذنا الفاضل عبدالحميد الرشودي في كتابه الاخير عن الرصافي، العذر الواضح في عدم ولوجه تفاصيل سيرة الشاعر وآرائه لانه اراد ان يقدم صورة عامة للمترجم له مالا يسع الاديب جهله، كما ان بعض كتابنا الافاضل، ابتعد – بقصد- عن الحديث حول موضوعات معينة في حياة الرصافي درءا للتقولات (كذا)، مع ان الرصافي عاش ومات فوق الشبهات وبعيدا عن كل مايشين وطنيته وحبه لوطنه وامته، فضلا عن ان حياته صارت ملكا للتاريخ ومجردة من النوازع الشخصية. ومن هذه الموضوعات حياته في فلسطين وقصيدته الذائعة التي القاها في القدس سنة ١٩٢٠، وما اثير حولها من شبهات، ومقالنا محاولة اولية، لبيان (حقائق) و(طرائف) من حياة الرصافي في القدس، وكشف بعض الصفحات المطوية منها. انتهت الحرب الكونية الاولى، وانهار الحكم العثماني في بلاد الشام والعراق، وتأسست دولة عربية في سورية ترأسها احد انجال الشريف حسين هو الامير فيصل وفي هذا الوقت كان معروف الرصافي في اسطنبول، فسر سرورا كبيرا لقيام الدولة العربية وشعر بأن منصبا كبيرا في هذه الدولة العربية ينتظره، لانه كان شاعر العرب وقصائده في العرب وامجادهم سارت بين الناس مسار الامثال، لكنه لم يفز بما كان يأمله، ولم يظفر بشيء يسير. لقد لقي من الحكومة العربية في الشام اعراضا بسبب موقفه المعارض لثورة الشريف حسين سنة ١٩١٦ ونظمه قصيدته الميمية (الديوان/ ٣/ ٥٩). واكاد اعتقد بأن حاشية الملك هي التي لعبت دورا كبيرا في عدم الاهتمام بالشاعر العربي الكبير، وربما اسروا للملك مايذكره بأن هذا الشاعر كان قد تعرض لابيه في مناسبات سابقة، واصيب الرصافي بخيبة امل كبيرة، وأحس بالضيق واليأس، ولما كان شاعرنا من الذين فطروا على عدم الاستجداء والتراجع عن مواقفه السياسية، فقد قرر العودة الى وطنه العراق. وفي غمرة استعداده الى العراق، تصله دعوة كريمة لم تكن في الحسبان، فتدارك امره اصدقاؤه في فلسطين، اسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني وعادل جبر وكانوا يومئذ يتولون امر التعليم في فلسطين فترامت الى اسماعهم اخبار صديقهم الرصافي فدعوه للتدريس في دار المعلمين بالقدس، فوافق على دعوتهم ووصل القدس يوم (٣ آذار ١٩٢٠) واصاب في وظيفته الجديدة بعض الراحة والاستقرار، حيث خصص له راتب قدره ثلاثون جنيها، وسكن لائق في احد اجنحة دار المعلمين، وقد ذكر هذه الحقيقة رفائيل بطي (ت ١٩٥٦) نقلا عن اسعاف النشاشيبي (مجلة القلم الجديد العمانية، ايار ١٩٥٣). عاش الرصافي في القدس في دعة ورخاء، محاطا بعناية اهلها الكرام وهو القائل:

اصبحت بالقدس في امن وفي دعة
وكدت من قبلها في الشام اعتقد

(الاعتقاد: ان يغلق الرجل بابه عليه فلا يسأل احدا حتى يموت جوعا وكانوا يفعلون ذلك ايام الجدب). ومن مظاهر هذا الرخاء، قيام طلبة مدرسة الشبان في القدس بتكريم الرصافي في حفل ادبي رقيق (الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني، كامل سوافيري ص ٢٧). وقد اقتنت نظارة المعارف في فلسطين الف نسخة من ديوان الرصافي الموسوم (الاناشيد المدرسية) الذي نظمه في القدس على اقتراح الدكتور خليل طوطح، وكان يستشير بعض الموسيقيين قبل ان يبدي له موضوع النشيد لينسجم اللفظ والنغم، كما افادنا استاذنا عبدالحميد الرشودي (ذكرى الرصافي، بغداد ١٩٥٠، ص ٨٤) وقد بقي الرصافي يذكر باجلال واعجاب كبيرين حفاوة الفلسطينيين: قد كان في الشام للايام مذ زمن ذنب محته الليالي في فلسطين اذ كان فيها النشاشيبي يسعفني وكنت فيها خليلا للسكاكيني وكان فيها ابن جبر لايقصر في جبر انكسار غريب الدار محزون واوحت فلسطين للرصافي بعدد من القصائد، هي: في سبيل الوطن، في ايلياء، دار الايتام، الحمد للمعلم، تحية سركيس.

" الخاتون " المس بيل في بغداد (٢)

نجدة فتحي صفوة
مؤرخ ومترجم ودبلوماسي

موقفها من الصراع بين كوكس ومود

مارك سايكس صاغ بيان تحرير بغداد ونشره الجنرال مود على مضض تطبيقا لتعليمات الحكومة في لندن

بيرسي كوكس الاستخبارات والسكان
وكانت اعمال بيرسي كوكس في بغداد كثيرة. فالي جانب تنظيم اعمال الاستخبارات كان. بوصفه رئيسا للضباط السياسيين. واسطة الاتصال بين قائد الجيش والسكان المدنيين، ومستشاره في اتصالاته السياسية بهم. وكان معظم وقته يصرف في مقابلة الوجهاء والشيوخ من شتي انحاء العراق، مما اظهر الحاجة الي مساعدة شخص خبير بتاريخ العشائر وانسابها، عالم باتجاهاتها والعلاقات بينها. وكانت مس بيل خير من يستطيع القيام بها العمل. ولكن قائد القوات البريطانية، الجنرال مود، اعرب عن مخاوف كبيرة حينما علم ان امرأة. مهما كانت كفاءتها. آتية للانضمام الي السكرتارية. كما انه خشي ان يتخذ قدومها سابقة بالنسبة لزوجات الضباط اللواتي قد يطالبن بالانتقال الي بغداد اسوة بها، وهو امر لم تكن السلطات البريطانية قد سمحت به بعد. ولكن السير بيرسي كوكس تمكن من اقناعه بعد ان اكد له بانها قادرة علي تقديم خدمات يعجز عنها اي عضو اخر في الادارة السياسية.
وبعد احتلال بغداد بأسبوع واحد، كانت غيرترود بيل في طريقها اليها من البصرة علي ظهر باخرة عسكرية بريطانية. وكانت رحلة نهرية بطيئة استغرقت تسعة ايام. وفي ١٥ نيسان (ابريل) وصلت بغداد، وكانت الدار التي خصصت لسكناها. علي قولها. اشبه بعلبة خانقة، فقضت فيها ليلة، ثم خرجت تبحث عن غيرها، فعثرت في محلة السنك ، قرب مدرسة الدهانة في ذلك الوقت، علي بستان ورد فيه ثلاثة بيوت صيفية تعود لاحد اصدقائها القدماء، وهو موسي جلبي الباجه جي، فانتقلت اليها بعد خمسة ايام.
اصبحت مس بيل عنصرا مهما في هيئة موظفي السير بيرسي كوكس، وكانت. حسب تعبيرها. تقوم بوظيفة غربال لحشود الزوار والوفود واصحاب الحاجات الذين يتدفقون علي مقره يوميا طالبين مقابلته. وكانت تزود السير بيرسي مع كل زائر بورقة تبين له فيها القبيلة التي ينتمي اليها، والمنطقة التي يمثلها، وما تعرفه عن ماضيه وميوله، والغرض من المقابلة، مما كان يوفر عليه كثيرا من الوقت ويسهل له العمل.
وقد وجدت مس بيل علي اثر وصولها الي بغداد ان هناك توترا شديد في العلاقات بين الجنرال مود، قائد القوات البريطانية، والسير بيرسي كوكس، رئيس مستشاريه السياسيين. وكان مبعث هذا التوتر هو الاختلاف الصارخ بين عقليتيهما وشخصيتيهما.
كان الجنرال مود عسكريا ممتازا، همه الاول متابعة الحرب، ومواصلة انتصاراته لاستكمال فتح العراق صعدا الي الشمال. وكان في اتصالاته بسكان اراضي العدو المحتلة. كما كانت توصف في ذلك الوقت. يتصرف تصرف الفاتح العسكري دون اعارة اي اهتمام للاعتبارات السياسية، او مشاعر سكان البلاد.
والواقع ان البيان الذي اصدره الجنرال مود بتوقيعه حين دخوله بغداد، مؤكدا لسكانها ان البريطانيين دخلوا محررين لا فاتحين لم يكن من انشائه، بل انه كان معارضا له بشدة، ولم ينشره الا علي مضض، وبناء علي تعليمات من الحكومة البريطانية التي ابرقت اليه بنص البيان. وكان الذي دبجه هو السير مارك سايكس، احد طرفي معاهدة سايكس. بيكو سيئة الصيت.
اما السير بيرسي كوكس فكان سياسيا محنكا خبيرا في الشؤون العربية، عاش بين العرب سنوات طويلة بصفة مقيم بريطاني في الخليج. وكان بوصفه مسؤولا عن اتصالات القيادة العامة بسكان البلاد، معنيا بانشاء ادارة مدنية تحل محل الادارة العثمانية التي انسحب معظم موظفيها مع القوات التركية، وبموافاة الحكومة البريطانية بتقارير دورية ومنظمة عن الاحوال العامة في البلاد.
ولكن الجنرال كان يميل الي التسلط، ولا يبدي اي اهتمام لتعليمات الحكومة حول السياسة الواجب اتباعها ولا لآراء كوكس، بل كان يتدخل في كل صغيرة وكبيرة بصورة مستمرة وغير ضرورية، بحجة الضرورات العسكرية. وفي عام ١٩١٧ كانت العلاقة بين الرجلين قد بلغت ذروتها من التوتر، وابرق السير بيرسي كوكس الي لندن طالبا تعزيز مركزه، وتمكينه من القيام بواجبه بصورة صحيحة، او اعفاءه من منصبه.
وفي هذا النزاع بين القطبين العسكري والسياسي كان للمس بيل دور حاسم. فقد صادف ان قام السير رونالد ستورز، من كبار رجال المكتب العربي في القاهرة بزيارة الي بغداد، فشرح له كوكس موقفه، وعرض مأخذه علي الجنرال مود، وأيدته في ذلك المس بيل تأييدا قويا. وبادرت مس بيل من جهة اخري الي كتابة رسالة مفصلة الي السير آرثر هيرتزل، وكيل وزارة الهند، الذي كانت لها به معرفة وثيقة، فاطلع عليها وزير الخارجية اللورد كرزن، وتمكن من حمل الحكومة البريطانية علي تأييد كوكس والاستجابة لطلباته.

الأب أنستاس الكرملي

ومع ذلك فلو علم السير بيرسي كوكس، وغيرترود بيل، بما كانت الاقدار تخفيه للجنرال مود، لما كلفا نفسيهما كل هذا العناء، بل اكتفيا بالانتظار بضعة ايام اخري. ففي مساء ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) حضر الجنرال مود حفلة اقامتها مدرسة الاليانس اليهودية في بغداد لتكريمه، وهناك قدمت اليه القهوة كما قدمت الي غيره. ولكنه طلب شيئا من الحليب ليضيفه علي القهوة، فجيء له بحليب ربما كان غير مغلي، وكان مرض الكوليرا منتشرا في بغداد في تلك الفترة، ويبدو ان الحليب الذي قدم له كان ملوثا بجراثيمه، فأصيب الجنرال بالكوليرا، ومات بعد اربعة ايام، وانتهت المشكلة بهذا الحل الجذري. وقيل في حينه ان جهة ما دست السم للجنرال مود في القهوة، والله اعلم. وقالت مس بيل في رسالة كتبتها علي اثر وفاته: لم يختر احد للموت وقتا افضل من الذي اختاره الجنرال مود. .
ورغب الانكليز بعد احتلال بغداد في اصدار جريدة تنطق بلسانهم وتعبر عن سياستهم، فأطلقوا عليها. باقتراح من الاب انستاس الكرملي. اسم العرب ، وصدر عددها الأول في ٤ تموز (يوليو) ١٩١٧، وقد عهد بادارة الجريدة ورئاسة تحريرها الي المستر جون فيلبي في باديء الامر، وكان يساعده الاب انستاس، ثم تولت مس بيل ادارة سياستها بعد ان تركها فيلبي، وكتبت في ذلك الي والدها تقول: انني ابدأ اعمالا جديدة وطريفة، احدها رئاسة تحرير (العرب) وهي الجريدة المحلية التي نصدرها. وتملأ ذهني الخطط لجعلها اكثر حيوية بالحصول علي مراسلين في شتي المناطق، ومحرر للاخبار المحلية. وانني واثقة بان القراء سيهتمون لسماع ان ابن فلان فرضت عليه غرامة لخروجه بدون فانوس بعد حلول الظلام، اكثر من اهمامهم بالاخبار التي تفيد ان قرية مجهولة في الفلاندر قد قصفت. .
ثم تشير الي الاب انستاس فتقول: الاب انستاس، مساعد رئيس التحرير، يأتي اسبوعيا لقراة المقالات الافتتاحية التي اقوم بمراقبتها. وهو عربي من لبنان، اشبه بشخصية خارجة علي التو من احد مؤلفات شوسر، عظيم المعرفة بلغته، كما انه يتكلم الفرنسية ويكتبها وكأنه احد ابنائها.
ثم تقول: ولا يقلل من حبي له اقتناعي بانه. علي الرغم من ثيابه الكهنوتية. رجل خبيث...
وفي ايلول سنة ١٩١٧ التحق الكرنل ارنولد ويلسن (السير ارنولد ويلسن فيما بعد) بهيئة موظفي السير بيرسي كوكس، واصبح نائبا له. وعلي الرغم من الاختلاف بين طبائع الرجلين والتباين في آرائهما، فمن الغريب ان التفاهم بينهما كان سائدا طيلة عمل الكرنل ويلسن مساعدا او نائبا للسير بيرسي كوكس. اما علاقة ويلسن بالمس بيل فكانت مختلفة جدا.
وفي ربيع سنة ١٩١٨ استدعي السير بيرسي كوكس الي لندن للمشاورة، وانتهي الامر باعارة خدماته ليكون وزيرا مفوضا في ايران، فأصبح الكرنل ويلسن وكيلا للحاكم المدني العام في العراق، وبقي علي رأس الادارة المدنية في العراق خلال سنتين حافلتين بالمشاكل والاضطرابات، وكان الرئيس المباشر للمس بيل طيلة هذه المدة.
كانت تقام في العراق، مع تقدم الجيش البريطاني فيه، ادارة مدنية جديدة، وكانت هذه الادارة تنظم علي اساس اعتبار العراق منطقة من مناطق الهند، وكان الهدف النهائي هو ضم العراق الي الهند ليصبح جزءا من الامبراطورية البريطانية.
ولكن مع التغيير الذي طرأ علي الجو الدولي بعد الهدنة، لم يعد ضم العراق الي الهند مقبولا دوليا، وكان علي بريطانيا ان تبحث عن صيغ اخري للابقاء علي سيطرتها، ولذلك كان لابد من اعادة تخطيط السياسة البريطانية بحيث لا تقتصر علي تحقيق اهداف بريطانية فقط، بل تطمئن في الوقت نفسه مطامح الرئيس الامريكي وود رو ويلسن التي عبّر عنها بمبدأ تقرير المصير وتكافؤ الفرص الاقتصادية لجميع الدول، ضمن بنوده الاربعة عشر. ولم يكن نظام الانتداب الذي ابتدع الا محاولة للتوفيق بين مصالح الشركاء المتناحرين، علي الرغم من ان تطبيق الانتداب عمليا كان سيضمن اعطاء الاولوية لاهداف بريطانية الاستراتيجية والتجارية.
وقد وجد كثير من البريطانيين صعوبة

المس بيل ويبدو في الصورة الملك فيصل الاول

كبيرة في قبول هذا التغيير، وما ارتاحوا له، وخاصة السير آرنولد ويلسن الذين كان مطلق اليدين في ادارة البلاد بين سنتي ١٩١٨ . ١٩٢٠ ولا شك ان اصراره علي تجاهل تطورات الوضع الدولي، والجو الجديد الذي ساد في لندن، ادي الي نتائج وخيمة جدا وربما كانت الاضرار التي عادت بها سياسته علي مصالح بريطانية اكبر مما عادت به علي العراق.

كان ويلسن استعماريا بنشأته وثقافته وآرائه السابقة. وكان من اولئك المؤمنين بـ رسالة الرجل الابيض وبأن من الواجبات التي القاها التاريخ علي عاتق بريطانيا هو حمل مشعل المدنية بين شعوب الشرق المتأخرة، كما كتب في ما بعد قائلا:

ان دور بريطانيا في رعاية بني الانسان هو بث المباديء المسيحية في حكمهم. لقد كان ايماننا بالعراق، مثل ايمان هربرت ادوارد بالهند، انه كان امانة بيد الحكومة البريطانية، وانه بحاجة الي ما هو اكثر من ميزات المدنية المادية. ان سياستنا يجب ان تكون اعداد العراق للحرية اولا، ومن ثم اطلاقه حرا. وكنا نؤمن بأن العراق لن يكون اهلا لممارسة الحرية قبل ان يختمر بمبادئ المسيحية .

ان اصرار ويلسون علي ضرورة بقاء العراق تحت حكم دولة اجنبية الي ان يصبح قادرا علي حكم نفسه، فضلا عن تجاهله لرغبات سكان البلاد، ومبادئ تقرير المصير، كان اشبه بمنطق من يقول للطفل لا تدخل الماء حتي تتعلم السباحة .

القدرة علي التكيف مع الظروف

اما مس بيل، فانها علي الرغم من كونها علي قدر كبير من الصلابة في آرائها ومواقفها، فان احد اسرار قوتها كان يمكن في قدرتها علي التكيف مع الظروف المتغيرة.

ويبدو ان إقامتها الطويلة المتواصلة في بغداد قد جعلتها اكثر تفهما للامور، واحدثت تغييرا كبيرا في آرائها عن القومية العربية ومستقبل العراق السياسي. ولو قارنا بين كتاباتها المبكرة ومواقفها الاخيرة، لوجدنا التطور في آرائها واضحا. فهي حتي سنة ١٩١٩ كانت تعتقد ان ليست هنالك في الشرق الاوسط عقائد وطنية، ولا روابط قومية. فقد كتبت مثلا في كتابها الصحراء والمعمورة الذي نشر في سنة ١٩٠٧ تقول ان الجمعيات التي تدعو الي الوحدة العربية، ومنشوراتها الحماسية، لا قيمة لها مطلقا، لانه ليست هنالك امة عربية.. فالتجار السوريون يفصلهم عن البدو برزخ اوسع من ذلك الذي يفصلهم عن العثمانيين. والبلاد السورية تقطنها اقوام تتكلم العربية، ولكن هم كل منها هو ان تمسك بخناق الاخري .

ولما زارت الشرق للمرة الثانية بعد اعلان الدستور العثماني، وتولي حزب الاتحاد والترقي زمام الحكم في الدولة العثمانية، دونت ملاحظاتها في كتابها من مراد الي مراد الذي صدر في سنة ١٩١١ فأشارت الي مرورها بالموصل، ووصفت الاضطرابات التي حدثت فيها خلال الثورة التي جاءت بالاتحاديين الي الحكم، قائلة ان الحكم العثماني هو افضل حكم بالنسبة للطوائف المختلفة والمتناحرة في المنطقة.

وفي احدي رسائلها الي ابيها في سنة ١٩١٨ كتبت تقول ان العراقيين يريدون الانكليز ولا يريدون غيرهم لانهم يعلمون اننا سنحكم حسب عادات البلاد، ويدركون ان نصب امير عربي امر مستحيل .

وفي مؤتمر الصلح في باريس، حينما استدعيت مع الكرنل ويلسن الي باريس لتقديم المشورة للوفد البريطاني الي المؤتمر، نصحت الامير فيصل. الذي كان مندوبا عن الحجاز في المؤتمر. ان يتفق مع الفرنسيين بشأن سورية، وان يتقرب اليهم لان الامريكيين لا يمكنهم ان يعاونوهم

في قصر الاخيضر

والانكليز لا يريدون ان يتدخلوا في شؤون سورية.

ويروي رستم حيدر الذي كان المندوب الثاني للحجاز في المؤتمر بمعية فيصل، والذي حضر اجتماعاتها به، في مذكراته التي حققتها ونشرتها في سنة ١٩٨٩ انه استغرب قولها هذا، واستفسر من الدكتور احمد قدري الذي كان معهم: هل مس بيل يهودية؟ قال: لا، قلت اذن هي مشتراة من الفرنسويين، او انها عشقت احد ظرفائهم، وهي تميل الي الاستعمار المطلق في الشرق. كما ان الكولونيل الذي يحكم في بغداد، مليكة الشرق، لا يريد للجنة كينغ .كراين ان تذهب لتري اعماله فيها، وهو لا يريد ان يجعل للاهالي صوتا مرتفعا بل يريدها كالاغنام، لان هذا لا يوافق افكاره الاستعمارية. ولنعلم ان الحزب الاستعماري المستبد الذي يتألف من امثال هؤلاء الملوك في المستعمرات، الصعاليك في بلادهم، هو حزب كبير لا يستهان بمطامعه يريد الاستبداد لانه هو الحاكم. ومس بيل معاونته، لا تري رأيا غير رأيه.

ويذكر رستم حيدر في مذكراته ايضا انه اجتمع مساء اليوم نفسه بلورنس ونقل له آراء غيرترود بيل، فقال له لورنس: ان مس بيل عقلها صغير، وليس لقولها اهمية تذكر، واما الكولونيل (ويلسن) فليس من رأيها تماما، علي انه حاكم في بغداد، ويريد ان يحتفظ بموقعه .

ان ما ذكرناه من قدرة مس بيل علي التكيف السريع مع الظروف المتغيرة، جعلها تغير كثيرا من آ رائها بسرعة. وفي حين ان ويلسن بقي مصرا علي عدم الاعتراف بأن الشعور الوطني في العراق قوة يجب ان يحسب حسابها، ويجب التعاون معها بدلا من محاولة كبتها، فان مس بيل ادركت في النهاية انه يجب، علي الاقل، الاعتراف بحقيقة واحدة، وهي ان الناس يفضلون ان يحكموا أنفسهم بأنفسهم، ولو بدون كفاءة، على ان يحكمهم غيرهم بكفاءة عالية .

وكتبت في احدي رسائلها من بغداد فيما بعد:

ان ما اتمني ان يقوم به السير بيرسي كوكس هو ان يعطي مواطني هذا البلد مسؤولية واسعة، فهي الطريق الوحيدة لجعلهم يعرفون اية مهمة صعبة هي الحكم.

اننا اذ نشجع هذا الكائن الحي علي النمو، ونجس نبضاته في ايدينا، لا نستطيع ان نحول دون نموه وارتفاعه.. .

وفي رسالة كتبتها الي المستر بومان الذي كان مديرا للمعارف في العراق في عهد الاحتلال، ثم انتقل الي عمل مماثل في القدس، قارنت بين سياسة بريطانيا في فلسطين (بادارة هربرت صموئيل) وسياستها في العراق قائلة:

انني لن اقبل، ولو اعطيت الدنيا كلها، ان اعمل في تلك السكرتارية (تريد سكرتارية حكومة فلسطين) اذ ان مهمتنا في العراق مهما كانت عسيرة، فاننا علي الاقل نسبح مع التيار الموجود، وهو التيار الوطني، والذي هو، علي اي حال، الحركة الوحيدة الظاهرة، في حين انكم (في فلسطين) كما يبدو لي، مضطرون الي السير في عكس التيار .

ولم تكن افكار غيرترود بيل حول ضرورة الاعتراف بواقع الشعور الوطني قاصرة علي العراق وحده، وانما كانت آراؤها في مستقبل فلسطين لا تقل عنها وضوحا، جاء في رسالة كتبتها من بغداد في مطلع سنة ١٩١٨ وبعد اعلان تصريح بلفور تقول:

عملت غيرترود مع ويلسن بانسجام في البداية، ولما صدر التصريح البريطاني . الفرنسي حول مستقبل البلاد العربية، عارضه ويلسن بشدة وابرق الي الحكومة البريطانية قائلا:

ان تعيين امير (عربي) في الوقت الحاضر ليس عمليا، وامر غير مرغوب فيه. ولا اعلم

امام خيمتها في بابل

فيما اذا كان مثل هذا التعيين يعد التزاما ضروريا بالنسبة الي التصريح الصادر في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ فاذا كان الامر كذلك فانني اتوقع ان يكون النهج الذي اختارته حكومة جلالته لهذا البلد شائكا.. .

ويقول ويلسن ان مس بيل طلبت اليه ان يبلغ وزير المستعمرات انها تتفق في الرأي مع ما جاء في هذه البرقية وجميع البرقيات التي ارسلت حتي ذلك الوقت حول هذا الموضوع.

في سورية

ولكن علي الرغم من هذا الانسجام المبدئي بدأت بوادر الخلاف تظهر في رسائل مس بيل الي والديها.

وكانت قد مرت سنة كاملة تقريبا بين توقيع معاهدة فرساي وتوزيع الانتدابات في مؤتمر سان ريمو في نيسان (ابريل) ١٩٢٠، ولم تصدر عن المقيمية البريطانية خلال سنة ١٩١٩ اية تصريحات واضحة عن السياسة التي تعتزم بريطانيا انتهاجها في العراق. وظهرت بوادر عدم ارتياح شديد فيه بسبب استمرار الاحتلال العسكري من جهة، وقيام دولة عربية مستقلة في سورية، من جهة اخري. اذ لم يرتح العراقيون حين رأوا ان السوريين اعتبروا قادرين علي حكم انفسهم، بينما كانوا هم. في نظر الحلفاء. غير اهل لذلك.

وفي اواخر سنة ١٩١٩ قامت مس بيل بزيارة الي سورية، وقابلت هناك عددا من العراقيين الذين يشغلون مناصب مهمة في حكومتها، ابرزهم ياسين الهاشمي. ويبدو انها تعرفت هناك للمرة الاولي علي نوع الحكومة التي يريدها العراقيون الذين يعملون مع فيصل في دمشق. وقدمت لدى عودتها تقريرا من اهم تقاريرها بعنوان سورية في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٩ غطي مقابلاتها ومباحثاتها خلال زيارتها. وقد ختمته بوصف الفوضي وسوء الادارة السائدين في سورية خلال حكم فيصل. ولكنها مع ذلك لم تشجب قيام حكم وطني قبل أوانه، بل بررت ذلك الوضع بأنه كان ضرورة تاريخية لا بد لبريطانيا من مواجهة مثله وقبوله في العراق ايضا وقالت: حينما نؤسس ادارة مدنية في هذه البلاد (أي في العراق) فان وجود حكومة وطنية في سورية منذ سنة أمر لن ينساه الوطنيون العراقيون .

وقد اعتبر ويلسن ان سكرتيرته الشرقية، بتقريرها هذا، الذي جاء خلافا لآرائه، قد خانته وخذلته.

وفي رسالة كتبتها مس بيل في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٢٠ اشارت الي الوضع في العراق، قائلة: وفيما عدا ذلك، فان الأمور ليست سهلة. اعتقد ان ويلسن يعالج الوضع بصورة ممتازة .

وهنا كانت مس بيل مخطئة. فالواقع ان ويلسن لم يكن ليعالج الوضع بصورة ممتازة. اذ حدثت في الرميثة بعد كتابة هذه الرسالة بمدة قصيرة، الواقعة التي كانت فاتحة ثورة عارمة انتشرت في سائر انحاء الفرات الاوسط والأسفل، ثم امتدت الي بغداد وغربها وشمالها حتي بعقوبة وشهربان وسامراء.

تلك هي ثورة العشرين، او الثورة العراقية التي اجبرت الحكومة البريطانية علي تغيير سياستها العراقية، والاقلاع نهائيا عن فكرة الحكم المباشر، وتطبيق سياسة الانتداب تحت قناع معاهدة بريطانية . عراقية.

ويبدو ان احداث الثورة قد زادت في توتر اعصاب ويلسن وخشونته مع موظفيه وكل من يتصل به. فقد كتبت مس بيل في ٩ ايار (مايو) ١٩٢٠ تقول: ان تناول الغداء في المكتب امر مزعج نوعا ما. ويلسن يترأس اجتماعات الغداء، وهو كثيرا ما يكون غاضبا كالدب. ولذلك فان الطريقة الوحيدة هي اهماله وعدم التحدث اليه. وهو لا يرتاح الي ذلك ايضا. ولكن ما العمل؟ .

وحينما منح ويلسن وسام فارس الامبراطورية الهندية (K.C.I.E) الذي اصبح بموجبه يحمل لقب سير ، كتبت غيرترود في احدي وسائلها (في ٢٣ ايار/ مايو ١٩٢٠):

لقد منح ويلسن وسام (فارس الامبراطورية الهندية) وانني مسرورة جدا، فهو جدير به كل الجدارة. اعترف أنني اتمني انهم وقد منحوه رتبة فارس، لو استطاعوا ايضا ان يمنحوه شيئا من الصفات الخلقية التي تنسب الي الفرسان عادة .

واستمرت العلاقات بين مس بيل والسير آرنولد ويلسن بين مد وجزر، وفي تموز (يوليو) ١٩٢٠ بلغ الخلاف بينهما ذروته في فصل عاصف وصفته قائلة: كنا حتي الآن نقضي ضربا من (شهر العسل)، ثم حدث لسوء الحظ ان افضيت الي احد اصدقائنا العرب هنا بنتفة من المعلومات التي لم يكن (من حيث المبدأ) ينبغي اعطاؤها. وهي لم تكن ذات اهمية كبيرة، ولم يتبادر الي ذهني انني اخطأت حتي ذكرت الأمر لويلسن عرضا. وكان في ذلك الصباح في سورة من الغضب، فصب جامه علي. قال ان عدم تبصري في الأمور لا يحتمل، وانني يجب ان لا اطلع علي اية ورقة في المكتب بعد الآن. وقد اعتذرت عن تلك الهفوة المعينة لكنه استمر قائلا: لقد اسأت اكثر من اي شخص آخر هنا، وانني لو لم اكن علي وشك المغادرة لطلبت فصلك منذ شهور .

نشر المقال في صحيفة الشرق الاوسط 2001 وهو تعقيب على كتاب بغداد العشرينات

في مدينة بابل

مكتبة الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد

ابراهيم الدروبي
مؤرخ راحل

اذا اردت ان ترى نسخة من اجمل نسخ القرآن الكريم في العالم واروعها خطاً وزخرفة واكبرها حجما، تجدها في مكتبة الشيخ عبد القادر الكيلاني ببغداد.

هي نسخة في مجلدين، طولها حوالي المتر وعرضه ٦٠ سم واذا فتحت احدهما وجدت الصفحات محلاة بالذهب الخالص والمينا اللازوردية. وقد خطت الايات بالمداد الاسود واسماء السور بالذهب والمداد الاحمر والازرق وحول الايات في كل صفحة خمسة اطارات او هوامش متتالية كل منها تفسير للقرآن حسب احد المفسرين بالعربية، واحدها تفسير باللغة الفارسية، وقد خطت بعض التفاسير على شكر مزهريات واوراد مذهبة منمقة وعدد صفحات الكتاب ١٨٠٠، وورقة حريري ناعم يعرف بالترمة، وهو ورق ثمين كان يستورد من الصين لكتابة المخطوطات القيمة. وقد كانت هذه النسخة الرائعة من القرآن الكريم هدية قدمها حاكم مقاطعة كشمير، السردار عبدالله خان بن الدراني الكوزئي، وتمت كتابته سنة ١٧٩٦.

وفي هذه المكتبة نسخة اخرى من القرآن الكريم محلاة بالذهب والمينا اللازوردية. ففي كل صفحة منها تتعاقب الاسطر التي خطت بالـلازورد، وقد خطت في كشمير سنة ١٨٧٧.

وهناك نسخة اخرى من القرآن الكريم كان قد اهداها للحضرة الكيلانية انور باشا رئيس الحكومة العثمانية عندما زار العراق في الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٥، وهي نسخة نفيسة نادرة محلاة بالذهب الخالص ومرصع جلدها بالجواهر، يضاهي خطها خط النسخة الرائعة التي اهداها السلطان عبد الحميد الثاني الى المغفور له السيد سلمان نقيب الاشراف عندما كان في الاستانة سنة ١٨٨٦.

وفضلا عن هذه التحف التي يتمثل فيها الفن الاسلامي على احسنه من حيث الخط، والتنسيق، والزخرفة واستعمال الذهب والمينا والتجليد، فان المكتبة الكيلانية تحوي من المخطوطات القديمة النادرة ما يعود تاريخه الى سبعمائة او ثمانمائة سنة، كالجزء الثاني من كتاب "مجمل اللغة" لابن فارس، خط بخط كوفي، ويعود الى القرن الخامس الهجري، وكتاب "غريب القرآن" للسجستاني وهو مخطوط بخط شامي ومؤرخ بسنة ٥٤٤ هجرية و"شرح مقامات الحريري" للمسعودي (خط سنة ٦٠٢ هجرية) وكثير غيرها. وبعض هذه المخطوطات محلى بالزخارف والذهب كالكشاف للزمخشري (مخطوط في سنة ١٥٨٨ م) وغيره.

لقد مرت على هذه المكتبة ادوار من المصائب ونزلت بها نكبات عديدة وامتدت اليها ايد اثيمة في تاريخها الطويل، وهي ما زالت محافظة على كرامتها تقاوم الايام. فهي المكتبة الوحيدة في بغداد التي مر عليها زمن تقرب من تسعمائة سنة.

ففي القرن الحادي عشر للميلاد (الخامس الهجري) شيد الحافظ قاضي القضاة ببغداد، ابو سعيد المبارك المخرمي، مدرسة بباب الازج شرقي بغداد تخرج منها فيما بعد السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني (١٠٧٧ – ١١٦٥م) وقد نظم السيد الشيخ خزانة كتب في هذه المدرسة جمع فيها مؤلفاته وكتبا كثيرة من انفس الكتب ونوادر المخطوطات، سميت "بالمكتبة القادرية". وقد وجدت مخطوطة في احدى مكتبات مصر لتاريخ الخطيب البغدادي كتب عليها ما نصه : "تملكته بالشراء الشرعي ببغداد وانا الفقير اليه عز شأنه عبد القادر الكيلاني وذلك في سنة ٥٢٥هـ).

وبعد وفاة الشيخ عبد القادر تولى المكتبة ابنه الشيخ عبد الوهاب واضاف اليها الكثير بما في ذلك كتبا خطها بيده (اذ كان حسن الخط) فضلا عن مؤلفاته.

والمطلع على تاريخ المكتبة بالتفصيل يرى الاجيال المتعاقبة في الاسرة الكيلانية تضيف اليه الكتب وتستنسخها سنة بعد اخرى، غير ان المكتبة ذهبت ضحية الحرق والتمزيق لاول مرة سنة ٦١٨ هجرية، وذلك من قبل وزارة ابن يونس كما روى ذلك المؤرخون كالحافظ الذهبي وابن العمار الحنبلي وغيرهما. إلا ان المكتبة ظهرت من جديد بعد ذلك بخمس عشرة سنة، ورد اليها ما تبقى من الكتب في حيازة افراد الاسرة هنا وهناك واستمرت في الاتساع حتى زمن سقوط بغداد بايدي التتار سنة ٦٥٦ هجرية، وعندها وقعت فريسة للنهب والتخريب اللذين امتدا ايضا الى المدرسة نفسها كما امتدا الى رباط الشيخ والجامع الذي كان قد شيده اولاده، والذي كان يدعى "ذا القباب السبع المذهبة".

وبعد مرور زمن طويل اعيدت المكتبة مرة اخرى بجهود ذرية الشيخ عبد القادر وهم الذين تولوا ادارة الجامع والمدرسة والمكتبة، وازدحمت هذه المكتبة بالمطالعين والوراقين والنساخ. غير انها احاقت بها النيران زمن الشاه اسماعيل الصفوي سنة ١٥٠٨ ولم يعد تكوينها حتى انتزعت بغداد من الصفويين على يدي السلطان سليمان القانوني (سنة ١٥٣٤)، ثم عادت فدمرت بعد ذلك بحوالي مئة سنة على ايدي الصفويين ايضا، ولكن ما كاد السلطان مراد الرابع يسترجع بغداد منهم لآخر مرة (سنة ١٦٣٨) حتى ظهرت المكتبة من جديد وبقيت محفوظة منذ ذلك اليوم بتعهدها نقباء بغداد.

عبد الرحمن النقيب

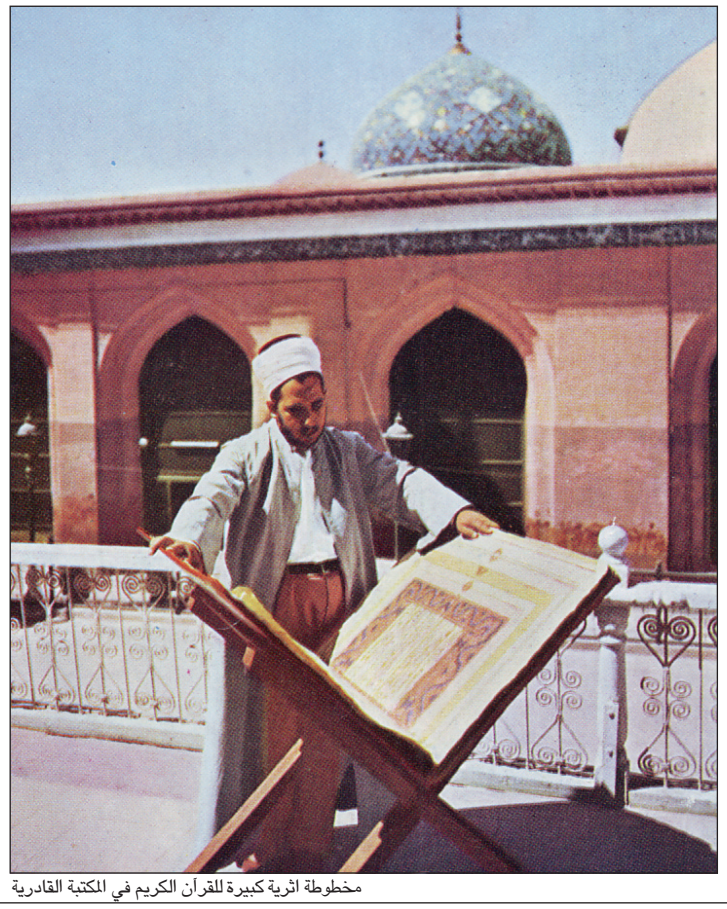

مخطوطة اثرية كبيرة للقرآن الكريم في المكتبة القادرية

ومن الممتع ان من بين الذين ساهموا في الاشراف على المكتبة وتوسيعها سيدة اشتهرت بحبها للعلم منذ حوالي مئة وخمسين سنة، هي عائكة خاتون الكيلاني. فقد شيدت مدرسة باسمها مقابل الجامع الكيلاني، ووقفت عليها كتبا كثيرة كتب على ظهر كل منها (وقفية المدرسة الخاتونية) وختم بختم عاتكة. غير ان هذه المدرسة اندثرت فنقلت كتبها الى المكتبة الكيلانية.

ومن آخر من عني مدى حياته بهذه المكتبة العلامة الكبير السيد عبد الرحمن الكيلاني المتوفي سنة ١٩٢٦، فقد كان له ولع عجيب بجمع الكتب حديثها وقديمها، مخطوطها ومطبوعها، يتفق عليها الكثير من ماله. وكان احيانا يرسل الخطاطين الى مصر والمغرب ليستنسخوا له الكتب التي يريدها، كما انه كان يستحضر لفافات ورق "الترمة" وغيره من الصين والهند بكميات كبيرة، لتسد حاجة النساخين في بيته.

فجمع مكتبة خاصة بقي الان منها ما يربو على ٦٠٠ مخطوط و ٢٠٠٠ مطبوع، جعلها وقفاً على المكتبة القادرية، وقد نسقت اخيرا في غرفتين جميلتين مفتوحتين للمطالعين والزائرين.

وهكذا ترى في المكتبة القادرية استمرارا لذلك التراث العلمي العربي الذي ما انفك نوره يشتد ويخبو، ورغم عاديات الزمن التي حلت بمدينة كانت من اعظم مدن العالم والذي يتسمله اليوم جيل جديد يعبد له اشراقه وانتشاره.

مجلة اهل النفط 1956

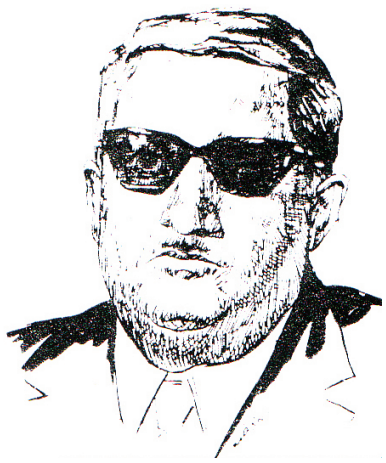

عبد القادر البراك
صحفي رائد

هذه بدايتي الصحفية

في اواخر السنة ١٩٤١ لم تكن في جانب الكرخ من بغداد سوى مكتبتين تبيعان الكتب والقرطاسية على طلاب المدارس الابتدائية والمتوسطة حيث لم تكن في ذلك الوقت مدرسة ثانوية (اعدادية) هناك، ولقد فكرت بعد ان حال قانون الجدارة البدنية دون قبولي بدار العلوم الدينية التابعة لجامع الامام الاعظم بسبب ضعف بصري ان افتح دارا للنشر مع ان العلوم التي يقدمها هذا المعهد هي من العلوم التي يتعاطاها المكفوفون!

اقول فكرت يومذاك بان افتح دارا للنشر والطبع، او ان استمر في الانتاج الادبي وان كان لايدر على من يقدمه فلسا واحدا. وقد دفعني الى ممارسة العمل الحر في حقل (الاتجار بالكتب) حصولي حصة من بيع دار موروثة عن ابي بمبلغ (٧٥) دينارا. وهو يومذاك مبلغ كبير وقد استنفذت فيما اعتاد ان يصرف (الوارثون) ما يحصلون عليه من (ارث) وكرست الباقي للعمل في مشروعي الجديد الذي لم اجد فيه بادرة من بوادر النجاح، لان (المصرف) الذي تحتاجه ادارة المكتبة هو اضعاف اضعاف ما يدخلها من البيوعات وليس من الارباح!

واذكر ان الاستاذ خالد الدرة استهل نشاط المكتبة بكتابة كراس له في دحض ما اورده الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم في كراسه المعنون (كلمة في النهج القومي)!.

وكانت الخسارة في طبع هذا الكراس اكبر من ان تتحملها المكتبة، وقبل ان اهم بالانتقال الى عمل جديد حمل الي عبد الملك البدري المحامي، المنشورات التي اعدها اعوان رشيد عالي الكيلاني وفي مقدمتهم يونس السبعاوي ومحمد صديق شنشل بدعوة الجماهير الى الاضراب والتظاهر وحمل وزارة طه الهاشمي على الاستقالة واعادة رشيد عالي الكيلاني الى الوزارة بالرغم من ارادة الوصي عبد الاله الذي كان قد فر الى الديوانية وحرض بعض اعضاء وزارة الكيلاني على الاستقالة منها ليختل وضعها الدستوري فتضطر الى التنحي عن الحكم!.

وبالفعل فقد قدم الكيلاني استقالته بعد ان تم اتفاق ضمني بين الضباط المؤيدين للكيلاني وبين البلاط على ان تؤلف وزارة مؤقتة برئاسة طه الهاشمي تتولى تصفية الخلافات ومن ثم ينظر في اعادة الكيلاني الى سدة الرئاسة، ويبدو ان البلاط لم يف بوعده وشرع باعداد ما يلزم لتشتيت شمل قادة الجيش المؤيدين للكيلاني والاستمرار في النهج السياسي الذي كان يمارسه البلاط ورجال الحكم الذين يسندونه ويستندون اليه من امثال نوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودة الايوبي وغيرهم!.

وبهذا الباعث كتب اعوان الكيلاني مناشيرهم بدعوة الهاشمي الى الاستقالة من رئاسة الوزارة إلا ان هذه الوزارة التي ابدت تخاذلا امام الضباط الكبار الذين اراد الوصي تنحيتهم عن مراكز القوة مارست قوتها امام حاملي المنشورات المعادية من امثال كاتب هذه السطور فالقت عليه الشرطة القبض وزجته في مركز شرطة (علاوي الحلة)، ومن ثم نقلته الى الموقف العام ببغداد مع صاحب صالون حلاقة مجاور هو السيد عبد الله السامرائي وكأن السلطة التي القت القبض على هذين المستضعفين قد قبضت على اكبر (مركز قوة) للثورة ضد الحكومة. وشعرت بان (حظي) قد ارتفع يوم سمعت ان احد الاعيان هو جلال بابان وقف في بهو المجلس ليدعو الى نصب المشانق للذين قاموا بتوزيع المناشير الداعية الى هدم النظام ، الامر الذي دفع العين الحاج عبد المحسن شلاش، وكان يسكن يومذاك جانب الكرخ الى ان يدعو بابان للتخفيف من غلوائه، فليس بين الموقوفين من الشباب من يشكل خطرا على النظام، وانما الخطر هو من الساسة الذين يستغلون هذه الاساليب في المعارضة!.

وحين اقتادنا افراد الشرطة من مركز شرطة (علاوي الحلة) الى (الموقف المركزي) مررت بسوق السراي لكي احمل بعض الكتب لاطالعها في السجن.

وكان اختياري من اسوأ الاختيارات حين اخترت كتاب (هكذا تكلم زرادشت) وهو من الكتب التي كانت شبه محظورة يومذاك تمثل اتجاهات الحكم (النازي) الذي كان المعسكر الغربي يناصبه العداء.

ولقد صودر هذا الكتاب من قبل ادارة السجن وتمتعنا بحفاوة المقيمين الدائمين في الموقف العام الذين سرعان ما استطاع احدهم ان ينشل من جيبي ٤ دنانير هي كل ما كنت املكه يومذاك!

وبعد مضي ٣٠ يوما في التوقيف استطاع الوسطاء اطلاق سراحي ولكن بعد ان سدت امامي جميع اوجه العمل سوى العمل في الدرجات البسيطة من العمل الصحفي حيث بدات التصحيح في عدد من الجرائد باجور زهيدة لا تكاد تسد الرمق ولكن العمل في الصحافة يومذاك بالرغم من انعدام مردوده الاقتصادي كان لذيذا جدا لان صدور مقال لكاتب او شاعر ناشيء في الصحف يجعله موضع اعجاب وتقدير الوسط الذي يعيش فيه. وان كان هذا الاعجاب لا يغني عن الحاجة الى المال الذي هو عصب الحياة بالنسبة لشاب اعزل ليس له من الموارد الثابتة ما يؤمن له الاستمرار في العمل الصحفي!.

ورحم الله العم الكبير الشاعر السيد خيري الهنداوي فقد استطاع ايجاد عمل لي في الحكومة بالرغم من قانون (الجدارة البدنية) الذي حال دون قبولي في دار العلوم وكان من الممكن ان يحول دون توظيفي. ولقد نجحت في الوظيفة وكنت امارس الى جانبها الكتابة في الصحف، وحين اضطلع المرحوم الاستاذ سعد صالح بوزارة الداخلية في وزارة توفيق السويدي الثانية التي تالفت للانتقال من جو الحرب الى اجواء السلم، ومن الحكم الدكتاتوري الى الحكم الديمقراطي طلبت من المرحوم سعد صالح منحى امتياز جريدة ادبية باسم (الامالي) فقال لي:

يا عبد القادر انت اديب ماكو شك.. وانت مفلس ماكو شك ايضا فلماذا لم تبق موظفا لدى الحكومة الى ان تكسب حق التقاعد وبذلك تؤمن لك المورد الثابت الذي يجعلك مستغنيا عما قد تدره الصحافة عليك من موارد قد لاترتضيها لو كنت تملك رفضها!

وكان المرحوم سعد محقا.. ولكني كنت مغرورا فاصررت على طلب الامتياز وهكذا كان. فان جريدة (الامالي) قد الغي امتيازها بعد صدور عددين منها في عهد وزارة ارشد العمري الاولى التي جاءت لتسترد الحريات العامة التي منحتها للشعب حكومة توفيق السويدي..

هذه خطوتي الاولى في بداية عملي الصحفي المباشر وليس عن طريق العمل لدى صحف الاخرين وما اكثر المفارقات بين الاثنين!.

جريدة الاتحاد 1986

القطار في الموصل قديماً

ازهر العبيدي
باحث وكاتب

وقائع رحلة بالقطار من الموصل الى بغداد

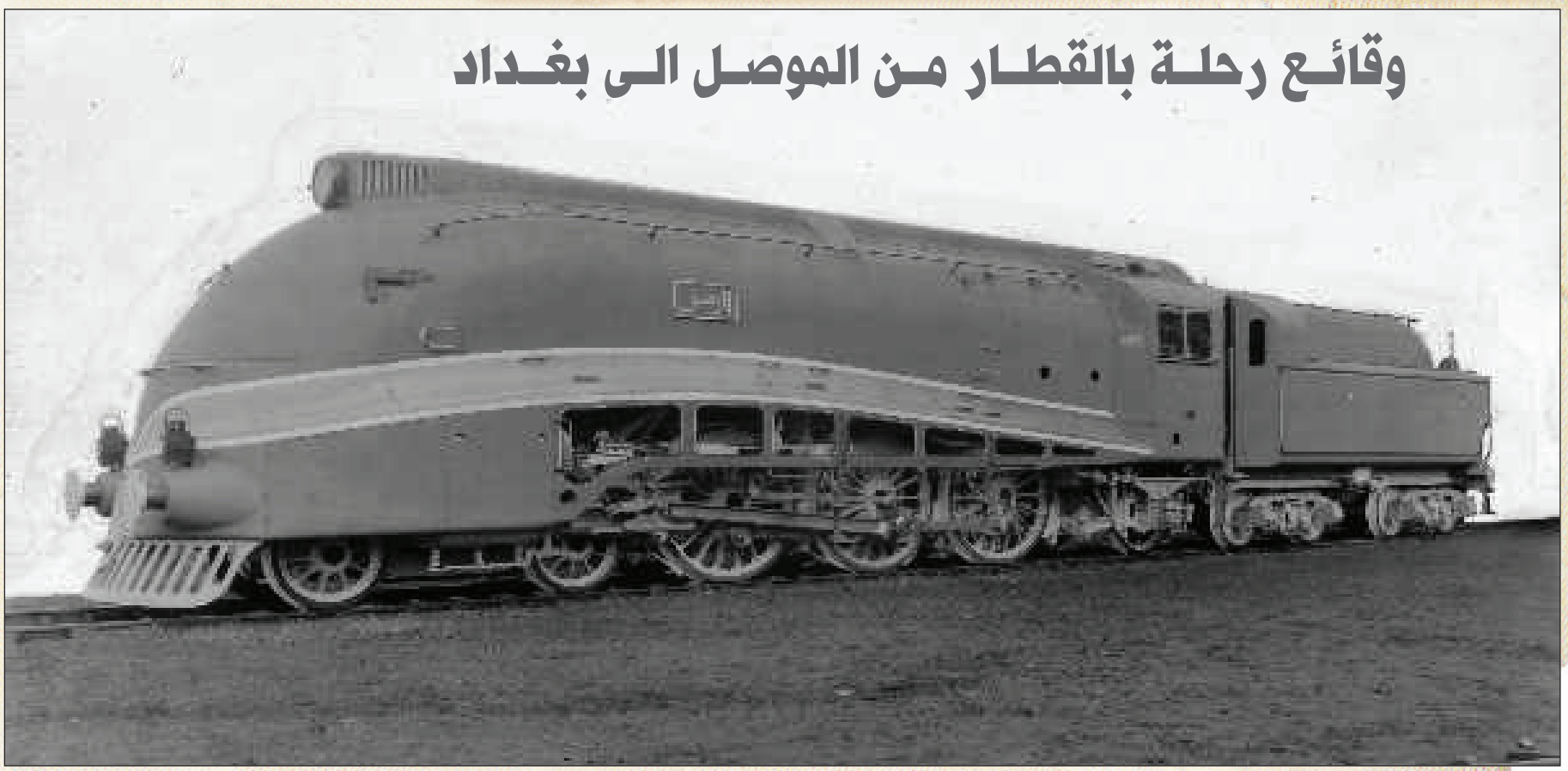

قطار الموصل

يتشاءم الموصليون من ذكر القطار في احاديثهم، فقد ارتبطت سنة قدومه الى الموصل باحداث مؤلمة، بقيت في ذاكرتهم فترة طويلة، إذ قتل الملك غازي سنة وصول القطار الى الموصل، وقد كان محبوبا من الشعب، ومات شاب في مقتبل العمر في حادث غرق في بركة ماء قرب باب سنجار، عندما تجمع اهالي الموصل خارج المدينة لاستقبال القطار القادم من تل كوجك في ربيع عام ١٩٣٦م. إذ اراد هذا الشاب استعراض بطولته امام هذا الجمع الكبير، فدخل الى وسط بركة الماء حتى غاص واختفى في عمقها، ولم يستطع احد انقاذه.

وعندما وصل القطار كان صراخ صفارته يصم الاذان، بصوت مخيف ارعب عددا من العامة البسطاء، وكان العمال يفحصون السكة امام القطار بمطارق حديدية، ويتأكدون من ثبات العوارض الخشبية تحت السكك الحديد خلال سير القطار، وطغى الحادث الاليم وهو غرق الشاب على الفرحة بوصول القطار لأول مرة.

وفي سنة ١٩٣٦م وضع الحجر الاساس في بيجي لانشاء خط سكة حديد بيجي- الموصل، وانجز العمل وافتتح الخط في ١٥ تموز ١٩٤٠، واصبح يربط بغداد بالموصل.

وكان الانكليز قد اوصلوا خط السكة الحديد الى بلدة الشرقاط عام ١٩١٨م في اثناء الحرب العالمية الاولى، خلال تقدمهم خلف الجيوش العثمانية المنسحبة نحو الشمال. ورفع هذا الخط الممتد من الشرقاط الى بيجي خلف الجيوش العثمانية المنسحبة نحو الشمال، ورفع هذا الخط الممتد من الشرقاط الى بيجي عام ١٩٢٧م بموافقة الحكومة العراقية.

لقد كنا في ذلك الحين معتادين على تحمل وهج الحر وقر البرد، دون الحاجة الى استخدام اي من وسائل التدفئة او التبريد. فالملابس الثقيلة والخفيفة هي العوض، فضلا عن الاغطية في البرد، والمراوح المبتكرة والبسيطة في الحر.

بهذه البساطة التي تعودنا عليها، كنا نسافر ذهابا وايابا من الموصل الى بغداد بالقطار القديم الذي يعمل بالفحم الحجري والبخار.

عرفنا القطار في الاربعينات والخمسينات متكونا من القاطرة الانكليزية (المكينة) التي تسحب القطار ذات الصوت العالي المتناغم (جك – جك – جك)، وعربات الركاب (الفاركونات) من الدرجة الثالثة والثانية والاولى، تتكون عربات الدرجة الثالثة من عربة حديدية ذات شبابيك زجاجية متركة نحو الاعلى والاسفل. تغطيها شبابيك خشبية (بنجور) لمنع دخول اشعة الشمس، يفتح المسافرون هذه الشبابيك ويغلقونها طوعا وعند الحاجة.

مقاعد هذه العربات خشبية تتوزع يمينا ويسارا، وكانت على نوعين كبيرة وصغيرة، الكبيرة منها تتسع لنوم شخص واحد، وجلوس ثلاثة اشخاص، والصغيرة تتسع لجلوس شخصين فقط، او لنوم شخص واحد وهو بوضع الجلوس، وهناك رف خشبي طويل على جانبي العربة، يستعمل لوضع العفش والحقائب الحديدية والجلدية عليه، ويستخدم للنوم المريح ايضا من قبل المسافرين والاطفال.

لايوجد تبريد في العجلة صيفا، اما في الشتاء فتدفأ بوساطة البخار الحار عن طريق انبوب يمر من بداية العجلة حتى نهايتها يسمى (السديم)، وهذا البخار تولده قاطرة القطار ذاته في اثناء اشتغالها، توجد عتلات حمر على جدار العجلة داخل اطار زجاجي، مكتوب على الزجاجة (لغرض ايقاف القطار اكسر الزجاجة واسحب السلسلة – يغرم من يوقف القطار بدون سبب مبلغ خمسة دنانير).

اما عربات الدرجة الثانية فقد كانت مخصصة للموظفين والضباط والوجهاء، تتكون من غرف في كل منها سريران احدهما منخفض يستعمل للجلوس ايضا والثاني مرتفع، وكانت عربات الدرجة الاولى مشابة لعربات الدرجة الثانية، ولكنها اكثر منها رفاهية وراحة، وتخصص لكبار الموظفين والاثرياء، اما ما يخص التكييف فهي مثل الدرجة الثالثة، وتلحق بالقطار عربة حمل للعفش والحمولات الخفيفة والمتوسطة، وتسمى العربة الضابطة، مقسمة بوساطة قطوع حديدية الى حانوت وغرفة للمفتش وغرفة صغيرة لمأمور سير القطار او (مسؤول القطار).

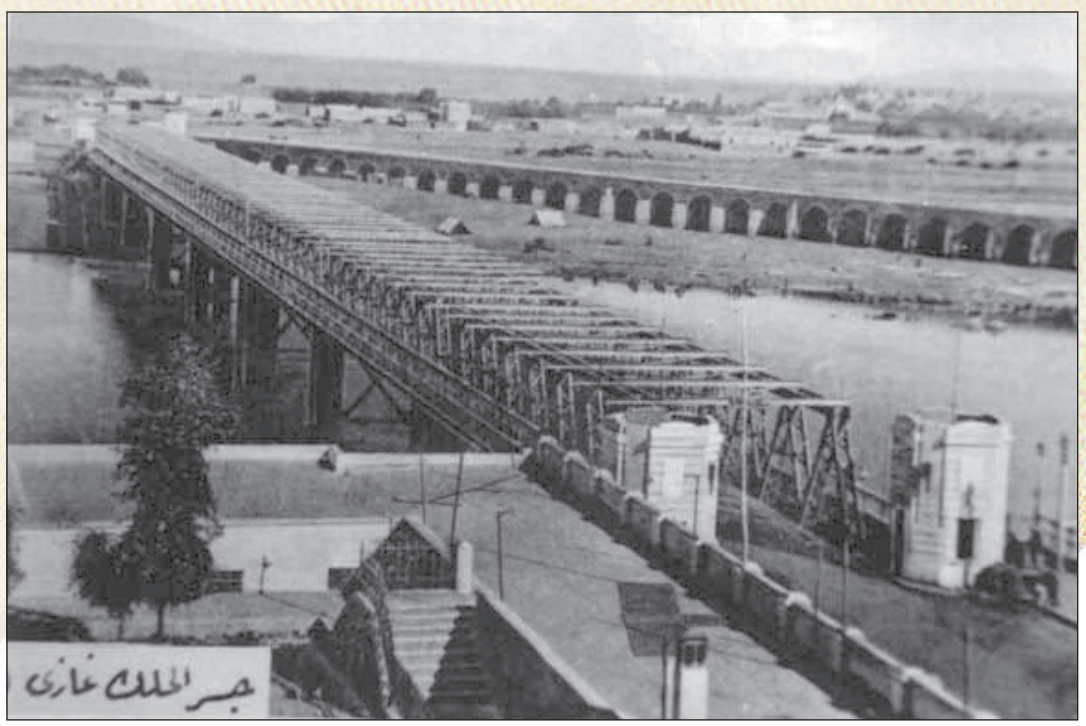

كان القطار يتحرك من بغداد الى الموصل صاعدا، ومن الموصل الى بغداد نازلا، وفي وقت واحد هو الساعة الثامنة مساء يوميا حسب جدول مواعيد السير التي لا يسمح بتغييرها. وكان الحجز يتم بان يرسل كل مسافر ولده منذ العصر في حوالي الساعة الرابعة لحجز الكراسي الكبيرة اولا وفي العربات الامامية من القطار، وقبل من يحجزها الاخرون فهي اقل اهتزازا من العربات الخلفية. اما قطع التذاكر (البطائق) فيتم مساءً قبل حركة القطار بساعة واحدة، وهكذا كان الاطفال يعانون من الحر والعطش والارهاق في الصيف، ومن البرد في الشتاء عدة ساعات ولكنهم يتلذذون بجلوسهم في عربة القطار التي لا يشاهدونها اكثر من مرة في السنة او ربما في عدة سنوات.

قد لا يمتلئ القطار بالركاب إلا في ايام الاعياد، فلم تكن العطل كثيرة، ولم يكن الموظفون او الطلاب او العسكريون بالكثرة التي تجعل القطار مليئا. فاغلب هؤلاء يعملون قرب اهليهم دون حاجة للسفر والغربة. وعندما يكون هناك قطار نهاري مزدحم، يضطر عدد من الركاب الى الاستقرار فوق العربات في الهواء الطلق وسط الدخان المنبعث من القاطرة، والتراب المتطاير من سرعة القطار، كما يهرب عدد آخر الى سطح القطار تخلصا من دفع اجور السفر التي كانت ضئيلة.

بدأ المسافرون بالوصول الى المحطة بسيارات

الاجرة او بالعربات التي تجرها الخيول على الاغلب، او بسيارات خاصة وهي قليلة في ذلك الحين، يحمل المسافرون معهم حوائجهم في حقائب (جنط) حديدية وجلدية بالحجام مختلفة، فضلا عن فرش نومهم من البطانيات والمخدات وعلى شكل رزم اسطوانية، او على شكل رزمة كبيرة اذا كانت كثيرة.

ويحملون كذلك متاعهم او طعام السفر، فضلا عن الهدايا (الصوغات) التي سيقدمونها الى اقاربهم او اصدقائهم او الشخصيات الرسمية التي سيزورونها في بغداد، وتتألف الصوغات من الحلويات كالبقلاوة والحجي باده والشكرلمة والحلقوم والسجق (-القاضي) والمعكرونية ومن السما والملبس. وهذه توضع داخل صفائح كبيرة من الزنك، او في علب اسطوانية خشبية باحجام مختلفة، وتتألف الهدايا كذلك من الاطعمة المعروفة في الموصل، مثل الكبب الكبيرة وعروق التنور والباسطرمة – الخ، كما قد تكون من النقل (الكرزات) مثل الفستق والجوز والبندق والبطم والحبة خضراء والكازو وفستق العبيد، ويختار الموصلي اجود انواع الكرزات واغلاها. وكذلك الزبيب الاحمر والاسود، وقلائد التين الواردة من سنجار، وتوضع هذه المواد داخل اوعية من الخوص (زنابيل) صغيرة وكبيرة، ويوضع فوقها غطاء من القماش تخاط حافاته بحافات الزنبيل لمنع سقوط المحتويات اثناء النقل.

وفي الصيف ياخذ المسافرون البطيخ الاقوشي داخل الزنابيل او الاكياس، وعكوس الشمزي (الرقي) الكبيرة التي يبلغ طول الواحدة منها حوالي متر وقطرها حوالي ٣٠ سم، وكذلك الطرشي من البائع المعروف طه الملك داخل صفائح، فضلا عن العسل الجيد والزبد والجبن والقشطة (القشفي)، واللبن الخاثر (الرائب) في فصل الربيع داخل اكياس من الخام الابيض في صفائح التنك.

وهكذا فان المسافر من الموصل يحمل معه اثقالا واحمالا من الهدايا اكثر من حاجياته الخاصة، وتتطلب منه جهودا كبيرة حين التنقل من مكان الى اخر، من ايصالها الى القطار، ثم انزالها في محطة بغداد عند الوصول، ثم تحميلها في السيارة او العربة وصولا الى المكان المقصود داخل المدينة، ويتمسك اهالي الموصل بهذه العادة الكريمة، مرهقين انفسهم وجيوبهم في اعداد هذه الهدايا.

تمتلئ محطة القطار مبكرا بعدد كبير من المسافرين مع اقاربهم والمودعين لهمن وعدد كبير من الشبان الذي يتسكعون جيئة وذهابا للترويح عن النفس، وقبل الساعة الثامنة بخمس دقائق يدق ناظر المحطة الجرس الكبير معلنا عن قرب حركة القطار، فيودع المسافرون اولادهم واقاربهم واصدقاءهم الذين حضروا الى المحطة، مشيعيهم بالسلام: (ايليقيكم الخيغ) اي يلقاكم الخير – (تفوحون وترجعون بالسلامي) اي تذهبون وترجعون بالسلامة – سالمين وغانمين – الله معاكم – (الله يشافيكم وترجعون بخيغ وعوافي) دعوة للمرضى بالشفاء – (سلمونا على بيت ابو فلان وبيت ابو فلان) ايصاء بالسلام على اهل بغداد – (ان شاء الله تفوحون سالمين وترجعون غانمين) – سيمي بالكي علولاد) توصي الام كنتها او ابنتها بان تحافظ على الاطفال، اي انتبهي للاولاد – (لا تنسون شيء لما تنزلون) توصي الام المسافرين بالانتباه الى عفشهم عند النزول من القطار لكي لا ينسوا شيئاً.

وفي الساعة الثامنة تماما يصفر القطار عدة صفرات، ثم يتحرك بطيئاً – بطيئاً باشارة مصباح اخضر من مأمور السير، ويكون المسافرون كافة قد اخذوا اماكنهم، وهم يلوحون بايديهم لمودعيهم، ترتج عربات القطار الى الامام والخلف اثناء حركة القطار من جراء تمدد النوابض، ويمر القطار بمحلة وادي حجر اولا، ثم بمعسكر الغزلاني، ثم معمل السكر والمدبغة، ثم بقرية البو سيف، ونفق البو سيف (اللقم).

محطة قطار الموصل

ومن الحكايات الطريفة التي يتداولها الاطفال عن اللقم، ان من يخرج رأسه من الشباك، فان رأسه يقطع او يخنق بالدخان المتصاعد من القاطرة، وتغلق الشبابيك قبل دخول النفق لمنع دخول الدخان الى داخل العربات.

بعد خروج القطار من النفق يقترب من ناحية حمام العليل (حمام علي)، ويباشر المفتش (التي تي) كما يسميه العامة (ومعنى تي تي مأخوذ من الانكليزية وهي Ticket Collector – اي جامع البطاقات ومختصرها T T) بفحص بطاقات الركاب قارضا اياها بقارضة صغيرة، ويغرم الركاب الذين سينزلون في حمام العليل، ذلك ان اغلبهم لا يقطعون تذكرة املا في النزول قبل صعود المفتش، وقد يغرم الاطفال الذين يكونون مع ذويهم ولم تقطع لهم تذكرة بحجة كونهم اطفالا.

يتمايل القطار في اثناء سيره يمينا ويسارا بسبب عدم توازن السكة، وتمدد النوابض وتقلصها، ويصعب على المسافرين شرب الماء دون ان ينسكب جزء منه على ملابسهمن ويصعب عليهم المشي داخل العربة ما لم يستندوا الى الكراسي او الرف الخشبي للقطار اثناء سيرهم.

يصل القطار الى حمام العليل فيترجل عدد كبير من الرجال والنساء والاطفال، حاملين على رؤوسهم الصور (البقج) واواني الحمام النحاسية، والفرش التي سينامون عليها هناك، بعد ان يكونوا قد استاجروا بيتا او عزالة (عغزيلي).

وعرفت منذ ذلك الحين الاغنية الشعبية (صاح القطار قومي انزلي – كوي اوصلنا حمام علي) وهي تتغنى بالقطار والحمام وحين ممارسة العادات الشعبية في حمام علي.

وبعد ان كان القطار مزدحما صاخبا، يصبح خاليا بعض الشيء من الركاب ومن ثمة من الضجيج، وخاصة اذا كان القطار نهاريا، اذ ان ركاب محطة حمام العليل يشكلون الغالبية العظمى فيه، وبعد نزول الركاب يحتل كل مسافر من الباقين مقعدا خاصا به لا يشاركه فيه احد.

يصعد الى القطار من حمام العليل باعة الشاي، حاملين اواني الشاي والقوارير مع البريمزات او الفحم، لبيع الشاي للمسافرين بسعر عشرة فلوس. وكم من حريق احدثه باعة الشاي في القطار ذهب ضحيته اناس ابرياء.

بعد حركة القطار يخرج المسافرون طعامهم (المتاع) من الصرة او الزمبيل، ويتكون الطعام من النواشف المؤلفة من عروق التنور او كبة الموصل او عرق الطاوة (الشفتة) والحم المقلي او المشوي.. الخ، ويقدم كل مسافر الطعام الى المسافر القريب منه، ولابد ان يشارك كل منهم زميله في الاكل وهي عادة محببة تعبر عن الكرم، وبعد تناول الطعام اللذيذ يشربون الشاي من البائع.

وفي الصيف تعلق شربات الماء خارج شباك القطار، مما يجعل ماءها بارد كماء الثلج بتأثير هواء الليل البارد، فيشربون منها بين حين وآخر.

وبعد مسيرة قليلة يصل القطار الى محطة الشورة، ومن بعدها القيارة ثم الجرناف وتلول الباج، وهي التلول التي كان اصحاب المواشي يدفعون فيها الضريبة (الباج) عن كل رأس من مواشيهم، ويسميها جمع من الناس خطأ بـ (تلول البق).

وفي محطة بيجي (بعيجي) التي تقع في حوالي منتصف المسافة الى بغداد، يتوقف القطار النازل مدة طويلة نسبيا، قد تبلغ اكثر من ساعة منتظرا القطار الصاعد من بغداد ليتبادلا السكة، فالسكة الموجودة مفردة ولا تسمح إلا بحركة قطار واحد وتسمى الخط المنفرد. وفي محطة بيجي تباع الاطعمة والبارد والشاي، وينزل في هذه المحطة الباعة من القطار النازل ليركبوا القطار الصاعد عائدين، وبهذا فهم يبقون في منازلهم نهارا، ويعلمون ليلا في القطارات.

ومن المعتاد ان يركب في القطار بين المحطات عدد من الركاب، وهم في الاغلب من الاغراب سكان القرى، وقد لايجد معظمهم اماكن لجلوسهم او نومهم، فيضطرون الى الانزواء في احد اركان القطار على الارض والرفوف ملتفين بفرواتهم، او النوم بين المقاعد على الارض ايضا، وكذلك يفعل معظم الركاب فيفترشون الارض بالبطانيات وينامون حتى الصباح، او يرتقون الى الرف المخصص للعفش فينامون فوقه – ويركب في القطار بين المحطات ايضا الباعة ينادون على بضاعتهم مثل: – السكاير، والسندويج، والحب والكرزات، والحلويات والعلك، والبارد في الصيف داخل دلاء (سطول) الماء البارد المثلج.

وبعد وصول القطار الصاعد، يتحرك قطار الموصل بعد اطلاق عدة صفارات باتجاه تكريت وعند توقفه فيها يركب عدد من المسافرين الذين لايجدون على الاغلب مكانا لجلوسهم سوى الارض، وقد تنشب معارك حامية بين الركاب القدماء والركاب الجدد، تستعمل فيها الايدي و (اليشامغ) و(العكل) والشتائم، يتحشد فيها اهل الموصل ضد الاغراب، وبعد تكريت يعبر القطار جسر الثرثار نحو سامراء، ومن بعدها الى بلد، حيث يكون ضياء الصباح قد انبلج.

وبعد بلد يصل الى المشاهدة ثم الدجيل، ثم التاجي التي يكثر فيها دخان المداخن العالية لمعامل الطابوق، فضلا عن الصرائف والمياء الاسنة، واناس يعيشون وسط هذا الجو عيشة غير صحية.

وعند وصول القطار الى سامراء، يكون قد قطع ارضا قاحلة صحراء موحشة لا نبت فيها، تمتد من الشرقاط حتى سامراء، ويثير القطار صيفا الغبار الذي يدخل الى العربات ، مما يؤدي الى تغطية الركاب بالغبار من رأسهم حتى ارجلهم، وبعد سامراء تكثر اشجار النخيل التي تملأ المنطقة حتى بغداد، وهي تحمل عذوق التمر الاصفر، وبساتين الكروم والرمان.

وبعد وصول القطار الى محطة الكاظمية يكون قد وصل الى مشارف مدينة بغداد، اذ يدخل محطة قطار بغداد العالمية في الساعة الثامنة، بعد ١٢ ساعة من ترك مدينة الموصل، وفي المحطة يترجل الركاب مع احمالهم حيث يقف عدد كبير من الحمالين مع عرباتهم الخشبية.

متطلعين الى اشارة واحدة من الركاب لكي يحمل واحدهم العفش لقاء اجر خيالي، ولكن الراكب الشاطر لا يقتنع بسهولة بمبلغ الاجرة الذي يطلبه الحمال، وبعد مناقشات طويلة يتم تقليل السعر العالي الذي طلبه الحمال الى سعر معقول، وقد يتجنب جمع من الركاب هذا المأزق فيحمل اثقاله مهما كان حجمها ووزنها الى خارج المحطة.

وامام محطة القطار يقف عدد كبير من سواق السيارات مع عجلاتهم، فضلا عن الباصات الخشبية وعربات الخيل، وتجري مناقشات طويلة مع الركاب حتى يقتنعوا بالسعر المعقول.. فقد اعتاد هؤلاء السواق على طلب اسعار عالية، يريدون بها ان يعوضوا الوقت الذي صرفوه في الوقوف في انتظار وصول القطار، اذ انهم يقفون في هذا المكان منذ الصباح الباكر، وبعد ان يتفق المسافر مع السائق، مؤكدا عليه ان يوصله حتى باب بيت اقاربه او الفندق الذي يقصده، يتم تحميل اثقال المسافر في صندوق السيارة وفوقها، وتتجه السيارة بعد ذلك خلال شوارع المدينة الجميلة نحو دار اقارب المسافر.

ويتم استقبال المسافر من قبل اقاربه بالمصافحة والقبلات، قائلين له: (الحمد لله على السلامة – عاشٍ من شافك – هاي وين انتو – شلونهم اهل الموصل – شلونا ابو فلان وام فلان – يمعود هاي انت ليش اتكلفت وجبت هالشي (يقصدون الهدايا) – هذا بيتك والله امبدلك ... الخ)، وكلما كانت الهدايا كبيرة كان الترحيب اكبر، وقد اعتاد الموصليون النزول في بيوت اقربائهم في الماضي، او في احد الفنادق في شارع الرشيد مثل فندق حسيب وفندق الرشيد الكبير، تلك التي يديرها اناس من المواصلة. اما الان فهم يؤمون فنادق الدرجة الاولى وفنادق شارع السعدون.

ويصل القطار الصاعد من بغداد الى الشورة مع الضياء الاول، ويستمر في سيره الى حمام العليل، ثم الى الموصل وسط مروج خضر في فصل الشتاء والربيع، وتتلألأ قطرات المطر عند سقوط اشعة الشمس عليها. ويدخل القطار الى نفق البو سيف فيظلم الجو بعد ان كان مضيئا، ثم يسير بمحاذاة نهر دجلة حتى دخوله مدينة الموصل، وهو يطلق صفارات متوالية ايذانا بالوصول، وتحذيرا للمارة والسيارات عند تقاطع السكة مع الشوارع.

وعند توقف القطار في المحطة يترجل الركاب حاملين امتعتهم مع ما اشتروه من بغداد هدية لاسرهم، مثل رمان كربلاء الخوشي داخل زنابيل محيطة، وعنوق التمر البرحي الذهبية داخل زنابيل ايضا. وكذلك برتقال ديالى الحلو المذاق والغزير الماء، والعنب بانواعه، ويستقبل المسافرون اولادهم الذين يكونون في انتظارهم منذ الصباح الباكر، فيحملون امتعتهم متجهين الى العربات التي تنتظرهم خارج المحطة، ويذهب عدد من المسافرين الى بيوتهم سيرا على الاقدام، ان كانت قريبة من المحطة في الباب الجديد او محلة العكيدات او الطوافي او باب البيض.

ان المسافر من الموصل يحمل معه اثقالا واحمالا من الهدايا اكثر من حاجياته الخاصة، وتتطلب منه جهودا كبيرة حين التنقل من مكان الى اخر، من ايصالها الى القطار، ثم انزالها في محطة بغداد عند الوصول، ثم تحميلها في السيارة او العربة وصولا الى المكان المقصود داخل المدينة، ويتمسك اهالي الموصل بهذه العادة الكريمة، مرهقين انفسهم وجيوبهم في اعداد هذه الهدايا.

الملا عبود الكرخي في سوق الخياطين

حسين الكرخي
كاتب عراقي راحل

اسرة آل عارف اغا، جاءت الى بغداد مع الوالي العثماني داود باشا عام ١٨١٧م واصبح لها املاك واراض ونفوذ ومكانة، اشتهر منها المرحوم عارف اغا، حيث كان من فضلاء بغداد، له مجلس عامر يجتمع فيه علية القوم، وحين توفي سنة ١٨٦٤م اعقبه في مجلسه السري المعروف محمود عارف اغا، وكان حسن الخلق والمعاشرة والمعرفة باصول المجاملة، ولهذا كان مجلسه يحفل بذوي الفضل والعلم والمكانة والوجاهة من البغداديين.

ومساكن هذه الاسرة في محلة الحيدرخانة، حول الجامع المعروف بجامع (نازندة خاتون)، التي تربط اسرتيهما صلة قربى ونسب، ولعلو مقام هذه الاسرة ارتبطت مع اسر معروفة في بغداد بروابط قربى ومصاهرة، ومن هذه الاسر اسرة السادة الكيلانيين، وآل شوكت باشا، وآل دلة توفي محمود سنة ١٩٤٠م.

كان من اعز اصدقاء الشاعر الكرخي ومن ابرز مجالسيه، وله معه نوادر وطرائف كثيرة وروابط عمل ففي عام ١٩٠٨م كان وكيلا عاما لشركة بيت عارف اغا، لنقل المسافرين بين امهات المدن العراقية، وكانت العربات الكبيرة التي تجرها الخيول هي الوسائط المستعملة انذاك في النقل من طريف ماوراه الكرخي عن صديقه محمود. قال – اعرف السري الامثل محمود افندي عارف اغا قبل اربعين سنة (عام ١٩٠٠م)، وقد اشتغلت وكيلا عنه مدة عشرين سنة في شركة النقل العائدة له، ومن ذلك الحين وحتى الان (١٩٤٠م) وانا اتردد على مجلسه وذات يوم زرته في داره العامرة وتحدثنا طويلا عن ذكرياتنا القديمة، ومما قاله لي:

(ملا) يندر وجود رجل مثلك بين الناس، وفي هذه السن المتقدمة، يتمتع بهذه الصحة، والغريب انك قوي البنية، صحيح الجسم بالرغم من انك اكبر مني سنا، بينما انا منهوك القوى، اشعر بانحلال عام وضعف في الحيوية، والسبب على ما اظن يرجع الى انني جالس في داري دائما بينما انت لاتنفك عن التنقل في جميع انحاء العراق وبصورة دائمية)، فقلت له، متعك الله بالصحة والعافية، كلامك هذا ينطبق تماما على المثل القائل خروف متحرك خير من اسد رابض، فضحك وضحكت ثم ودعته وانصرفت.

ومن الطريف ماوراه لي سبط المرحوم محمود عارف اغا، الاستاذ قصي عدنان الكيلاني المحامي، قال: مر جدي لامي محمود عارف اغا ذات يوم بخياط له في سوق الخياطين المؤدي الى شارع السموال، فوجد عنده قطعة قماش فاخرة اعجبته كثيرا، فاحب ان يخيطها (صابة وجاكيت)، فاعتذر الخياط قائلا – جلبي! هذا القماش مال ملا عبود، شيخلصني من لسانه اذا خيطته الك؟

فاجابه: انت ما عليك، اني والملا نتفاصل، فسكت الخياط على مضض وهو في غاية الحرج. وفي اليوم الثاني مر الملا عبود بالخياط فافهمه بما دار بينه وبين الجلبي امس فقال له – كوم اخذ لي اولجي، وراح تسمع شلون اخلي محمود جلبي تكب روحه ويتشاءم من هل قماش؟؟ دون ان يزعل عليك وعلي.

وبعد يومين اجتمع الكرخي بالجلبي في مجلسه، فسأله الجلبي – ابو نجم! ما تكلي القماش الشفته عند الخياط منين (من اين) اشتريته؟ فاجاب الملا والله جلبي اشتريته من فد واحد، مات على غفلة وره (بعد) ما اخذته منه بساعة؟؟

فارتعب الجلبي (كشت روحه) وتشاءم، وتعوذ من الشيطان، ولم يراجع بعدها الخياط بشان القماش ابدا، كما انه خشي ان يدخل في معاملة يكون صديقه الكرخي طرفا فيها، والمعروف ان الجلبي كثير التشاؤم، والكرخي يعرف هذه الصفة فيه، ولذلك فانه استطاع عن طريق نقطة الضعف هذه، ان يحتفظ بقماشه لنفسه وبصداقة صاحبه محمود جلبي وهذا من بديع حسن التخلص.

ومن ذكريات الكرخي عن هذا المجلس قال:

ان احد جلسائه باشر ببناء دار له، وكان كلما يغشى المجلس لا يمل من الحديث عن تقاعس العمال وصعوبة الحصول على المواد الانشائية، فضاق المرحوم محمود جلبي ذرعا بشكاواه، وقال له: انا شفت (رايت) في المنام، ان الانسان اذا اصابه ضجر من امر ما، فما عليه الا ان يقف في ساحة داره، ويهوس هوسة من الهوسات التي يعرفها فعليك ان تعمل بما رأيته في المنام ليزول ضجرك ولكي لا تنسى خذ هذه الورقة وستجد فيها نفس الهوسة التي سمعتها في الرؤيا وهي (يا شيخنا عبد الكريم، انطي (اعط) الفرس خيالها) فاجابه الجليس وكان اسمه عبد الكلايم فعلا:

– انا كثير الاولاد، واخشى ان انا هوست هذه الهوسة، يعتبروونني مجنونا!

فاجابه محمود جلبي – أخي، احنه شنو ذنبنه مو راح نتخبل من وراك!؟ فضحك الجميع بينما انصرف صاحبنا خجلا ولم نعد نراه في المجلس بعدها.

كتاب مجالس بغدادية ج/1

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
نائب رئيس التحرير: عدنان حسين
مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي . رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل
طبعت بمطابع مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون